الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مولود معمري تيزي وزو

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

التخصص: اللغة والأدب العربي

الشعبة: النظرية الأدبية المعاصرة

إعداد الطالبة: رشيدة عابد

الموضوع:

الأشكال النثريّة القصيرة

في "عيون الأخبار" لابن قتيبة

- دراسة تصنيفيّة -

لجنة المناقشة:

- د. مصطفى درواش، أستاذ التّعليم العالي، جامعة مولود معمري تيزي وزو.....رئيسا

- د. آمنة بلّعلى، أستاذة التّعليم العالي،جامعة مولود معمري تيزي وزو.مشرفة ومقرّرة

-د.زاهية طراحة، أستاذة محاضرة، جامعة مولود معمري تيزي وزو.....عضوا ممتحنا

تاريخ المناقشة:2010/07/14

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

إهداء

كلما عسرت أمامي السّبل والتوت . . كنتما خلاصي

وكلما طمحتُ نحو الأحسن . . رضاكما أملي وغايتي

إليكما معلميّ الأولين في دروس الحياة

إليكما *أمي وأبي* أهدي هذا العمل

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

« إنّما مثل هذا الكتاب كمثل المائدة، تختلف فيها مذاقات الطّعوم لاختلاف شهوات الآكلين»

[ابن قتيبة/عيون الأخبار/مج1/ ص39]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهرس الموضوعات

مقدمة	.....	4-1
تأطير	.....	17-5
الفصل الأول:	**أشكال الحديث بين المنطوق والمكتوب والمأثور**.....	70-18
1-	**المخاطبات**.....	34-20
1 – 1-	وجهات نظر في المخاطبات.....	26-20
1 – 2 -	المخاطبات في عيون الأخبار.....	34-26
2 -	**المكاتبات**.....	47-35
2 -1-	وجهات نظر في المكاتبات.....	43-35
2 – 2-	المكاتبات في عيون الأخبار.....	47-43
3 -	**المأثورات**.....	67-48
3 -1 –	نحو تحديد المعايير.....	52-50
3 – 2 -	المأثورات في عيون الأخبار.....	67-52
تركيب	.....	70-68
الفصل الثاني:	**أشكال الخبر بين الأنواع والأنماط والمقاصد**.....	135-71
1 -	**بنيات الخبر: من البسيط إلى المركب**.....	95-73
1 -1 –	وجهات نظر.....	82-73
1 -2 –	عيون الأخبار انفتاح البنية وتحول الخبر.....	95-82
2 -	**أنماط الخبر: الواقعي واللاواقعي**.....	118-96
2 -1 –	وجهات نظر.....	103-96
2 – 2 -	أنماط الخبر في عيون الأخبار: من الأليف إلى العجيب.....	118-103
3 -	**مقاصد الخبر وأبعاده: بين الجد والهزل**.....	132-119
3 -1 –	الجد والهزل في التراث وتكريس الثقافة العالمة.....	124-119
3 – 2 -	عيون الأخبار: ابن قتيبة ومقاصد الخبر.....	132-124
تركيب	.....	135-133
الخاتمة	.....	139-136
المصادر والمراجع	.....	143-140

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

مقدّمة:

لا يزال التّراث العربي رغم ما قدّم حوله من دراسات، بحاجة إلى التّقليب والتّنقيب في زواياه المتعدّدة، برؤى مختلفة، وقراءات جديدة، من منطلق أنّه ملاذ الذّات العربية لإثبات الهويّة في خضم العولمة والدعاوى الّتي أصبحت تنادي من هنا وهناك بإزالة كل فرق أو خصوصيّة ثقافيّة.

انطلاقا من هذه الضرورة العلميّة الملحّة الّتي ترسّخت فينا أكثر فأكثر من خلال إشارات أستاذتنا الفاضلة **آمنة بلّعلى** الدّائبة إلى أهمّية الاشتغال بالتّراث وجعله مدار البحث لما يزخر به من ثراء وتنوّع معرفيّ علميّ وإبداعي في الوقت نفسه، وأثناء السّنة التحضيرية من خلال وحدة "نظرية السرد وعلم السرد" تطرقنا إلى محور تصنيف الأجناس والأنواع، الّذي يعتبر من صميم محاور النّظريّة الأدبيّة منذ أفلاطون وأرسطو إلى يومنا هذا، فأشارت الأستاذة إلى إمكانية الاستنارة بالمنجزات المقدّمة في هذا المجال باختلاف مشاربها وأصولها، لتصنيف الأشكال النّثرية المتنوعة الّتي يزخر بها تراثنا العربي، وهنا تبلور مجال البحث الّذي أردنا الخوض فيه.

وبما أنّ التراث أوسع و أثرى من أن يحصر في بحث مذكرة الماجستير فلابدّ إذن من تحديد مدوّنة بعينها للاشتغال عليها، استيفاء لحدود البحث زمانا ومكانا، ومن خلال الاطلاع على مؤلّفات الباحث المغربي ***سعيد يقطين*** الّذي تبيّن لي اهتمامه بهذا المجال من خلال مشروعه الرّامي إلى تأسيس "سرديات عربيّة" ،فقد أشار في مؤلّفاته المتعدّدة إلى المكتبة التراثيّة وما تزخر به من مؤلفات نثرية تحتاج إلى الدراسة والاهتمام، فكان أن تمّ التّواصل معه عبر الانترنيت فرحّب بالموضوع وشجعني على المضي قدما وساعدني في اختيار المدوّنة المناسبة فكان كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة الدينوري، نظرا للثّراء والتّنوع الّذي يمتاز به ممّا يسمح برصد أكبر عدد من التّجليات النّثريّة. وبهذا توصّلنا إلى صياغة العنوان: **"الأشكال النّثريّة القصيرة في عيون الأخبار".**

طرح علينا الموضوع مجموعة من التّساؤلات تشكّلت منها إشكالية البحث، الّتي يمثلها سؤال عام هو:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- ماهي الأشكال النّثريّة القصيرة الّتي يزخر بها مؤلف "عيون الأخبار"؟

وتولد عن هذا السّؤال المباشر مجموعة أسئلة شكّلت جوهر إشكالية البحث، وهي:

كيف تبدو التّجليات النثرية في التّراث العربي؟ هل وعى أسلافنا مسألة التّصنيف ومارسوها؟ وما هي المعايير الّتي اعتمدوها في ذلك؟ ماذا يمكن أن تمدّنا منجزات النظريات الحديثة من أدوات لقراءة هذه الأشكال وتصنيفها؟ هل يمكن إحداث صلة تقارب بين المنجزات التراثية والحداثية للخروج بنظرة أشمل وأوسع لهذا التراث؟ ما علاقة "عيون الأخبار" بهذه المنجزات وأين يتموضع من هذا التّراث؟ كيف قدّم ابن قتيبة عمله هذا؟ هل كانت له نظرة تصنيفية معينة، أم أنه اكتفى بالجمع والتدوين؟ إن كان مصنِّفا فما هي المعايير الّتي اعتمدها؟ وما الحاجة إلى إعادة تصنيفه الآن؟ هل يمكن إيجاد مميزات ثابتة للفصل بين الأشكال النثريّة على الخصوص؟..

كل هذه التّساؤلات والفرضيّات حاولنا معالجتها ضمن خطّة تضمّنت فصلين سبقناهما بتأطير حاولنا من خلاله توضيح بعض المفاهيم الّتي تشكّل عتبة الولوج إلى صميم الموضوع والمتمثّلة بشكل أساس في الخلفية الّتي سيتمّ الارتكاز عليها في البحث، كمفهوم الأدب بالمعنى التّراثي للكلمة، وعلاقته بمفهوم "الشّكل" وصفة "القصر" المضافة إلى النّثر، مع الإشارة إلى علاقتها بالمدوّنة، وتوضيح المداخل التّصنيفية الّتي يتم الانطلاق منها للتصنيف، حيث اتضح شكلان جامعان هما: "الحديث" و"الخبر"، شكّل كلٌّ منهما محور فصل مستقل.

تمحور الفصل الأوّل الموسوم بـــ: ***"أشكال الحديث بين المنطوق والمكتوب والمأثور"*** حول الأشكال الّتي يضمّها الحديث، وفي محاولة منّا للاستنارة بما قدّم من منجزات تراثية وحداثية، غربية وعربية، برزت سمات معيّنة دعتنا لتصنيف ثلاثة أشكال أساسيّة هي: "المخاطبات"، "المكاتبات" و"المأثورات" تتدرج ضمن كل واحد منها عدّة تنويعات فرعيّة، وعليه تمّ تقسيم الفصل إلى ثلاثة مباحث انفرد كل مبحث بشكل من هذه الأشكال.

أمّا الفصل الثّاني الموسوم بـــ: ***"أشكال الخبر بين الأنواع والأنماط والمقاصد"*** الّذي تمحور حول الخبر، فاستنادا لما تقدّم في "عيون الأخبار" من تجلّيات، وما استنرنا به من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منجزات نظريّة، برزت ثلاث ثنائيات تحكّمت في مراتب التّصنيف لشكل الخبر: وهي الأنواع المتعلّقة بالبساطة والتّركيب، ثم الأنماط المتعلقة بالواقعي واللاّواقعي، ثمّ المقاصد المتعلّقة بالجد والهزل، فأفرزت هذه الثنائيّات تنويعات كثيرة للخبر كما سيتبيّن من خلال المباحث الثّلاثة الّتي قسّم إليها الفصل.

وعلى الرّغم من إفرادنا كلّ فصل بنتائجه الخاصة والجزئيّة، إلاّ أنّه كان لابد من تركيب عام لتلك الجزئيات وذلك ما اتجهت إليه خاتمة البحث الّتي توخّينا فيها إجمال ما توصّلنا إليه بغية الإجابة عن الأسئلة المطروحة و إثبات أو نفي الفرضيات المقدّمة هاهنا.

أمّا عن المنهج المتّبع في الدّراسة فقد كان الاستقراء والاستنباط ثم التصنيف الخطوات الأساسيّة في العمل، مع الاستنارة بأسس ومعايير التّصنيف المستمدّة من المنجزات التراثية والحداثيّة، العربية والغربيّة، ومنه اعتمادنا على مجموعة من المصادر والمراجع لإنجاز البحث، أهمّها المدونة " عيون الأخبار"، ومؤلفات الجاحظ وابن وهب وغيرهم، ومؤلفات سعيد يقطين المتعدّدة أخصها الكلام والخبر(مقدمة للسرد العربي)، وكذا بعض المؤلفات الأخرى العربية و الأجنبية المثبتة في قائمة في آخر هذا البحث.

وفي آخر هذه المقدّمة لا يسعني إلاّ أن أعمل بقوله سبحانه وتعالى:﴿ *وَ إِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ* ﴾ [سورة إبراهيم الآية 7]، أشكر الله عزّ وجل على أن وفّقني إلى تقديم هذا العمل، الّذي أرجو به الفائدة لي ولغيري، ومن بعده أتقدّم بالشكر والامتنان لأساتذتي الأجلاء بدءا بـــ:

- أستاذتي المشرفة المحترمة: ***آمنة بلعلى***

- أستاذي القدير: ***العبّاس عبدوش***

على تعهّدهما الصّادق للبحث وصاحبته من خلال مناقشاتهما لأفكاره وتوجيهاتهما ونصائحهما القيّمة الّتي أفدت منها كثيرا وإمدادهما لي بالمراجع اللاّزمة الّتي ذلّلت أمامي كثيرا من الصّعاب والمشاق، كما لا أنسى أستاذي الفاضل الأستاذ **خالد عيقون** الّذي وفّر لي أحسن طبعة وآخرها صدرت للمدوّنة المشتغل عليها، فله منّي خالص الشّكر والعرفان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأتقدم بالشكر الجزيل للأساتذة أعضاء لجنة المناقشة على اضطلاعهم بقراءة البحث وإبداء ملاحظاتهم وتوجيهاتهم لتقويمه وإثرائه.

كما أشكر كلّ العاملين بمكتبة القسم على تعاونهم ومعاملتهم السّمحة.

ودون ذكر الأسماء حتّى لا أنسى أحدا أشكر كل من قدّم لي شكلا من أشكال المساندة ماديّة أو معنوية، من أهل وأقارب وأصدقاء وأساتذة وزملاء، فعسى أن أكون عند حسن ظنّهم بي.

والله ولي التوفيق

تيزي وزو في: 2010/02/07

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تأطـــير:

يسعى هذا التّأطير إلى توضيح الملامح أو الأسس النّظرية الّتي تتبني عليها هذه الدّراسة، إذ نبتغي – قبل الخوض في وصف الأشكال النّثريّة وتصنيفها في "*عيون الأخبار*"- توضيح بعض المفاهيم المتعلّقة بالموضوع كـــ:مفهوم الأدب في التّراث وعلاقته بالمفهوم الحداثي، فليس الحديث عن الأشكال والأنواع في حقيقته إلاّ حديثا عن "*تجليات أدبية*"، كما سيشير إلى الأسس الّتي تقوم عليها عمليّات التّصنيف بالاعتماد على المجهودات المقدّمة قديما وحديثا، العربيّة منها والغربيّة، وعلى المداخل الأساسيّة للتّصنيف الّتي سنلج بها "عيون الأخبار".

1. تعتبر محاولة تحديد أو إعطاء مفهوم للأدب شبه مستحيلة، فهي معروفة النتائج سلفا، كما أثبتت ذلك جلّ الدّراسات الّتي سارت على هذا النّهج، وعليه سننحرف عن محاولة تحديد الماهية إلى النّظر في الفرق الكامن بين الاستعمالين التّراثي والحداثي لكلمة "*أدب*"، ولنبدأ من النّهاية.

لاحظ الباحثون في الثّقافة الغربيّة أنّ كلمة "*أدب*" حديثة الاستعمال، يرجع استعمالها إلى نهاية القرن الثّامن عشر، وهذا ما أشار إليه الباحث ***تزفيتان تودوروف*** ***(T.Todorov)***في دراسة له بعنوان"*مفهوم الأدب*"، إذ حاول أن يتتبّع سيرورة المفهوم منذ أرسطو فلاحظ أنّ للأدب كيانين: أحدهما بنيويّ و الآخر وظيفيّ، وقد جرى الفصل بينهما في مراحل والدّمج في مراحل أخرى، دون أن يتمّ الإلمام بكل الأنماط أو الأنواع الّتي تدخل في إطار الأدب، منتهيا إلى النتيجة المعروفة آنفا، وهي أنّ التّعريفات المعطاة للأدب ناقصة لا تغطي إلاّ جنسين هما: الشّعر والرّواية، وقد أقلقه إقصاء عدد لا يحصى من الأشكال الّتي لم تعتبر أدبا، رغم أنّها أقرب إليه، فهو يؤمن بأنّ «لكل نمط من أنماط الخطاب الموصوف عادة بأنه أدبيّ" أقرباء" لا أدبيّين هم أقرب إليه من أي نمط أدبي آخر»[1]. ليعلن بالنّهاية عن فشل الأدب في بناء موضوعه، ويُحلّ "*الخطاب*" محل" *الأدب*" كمجال جدير بالوصف والتّصنيف. تتجلّى إذن علاقة الأدب

[1]- تزفيتان تودوروف، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، تر : عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2002. ص 19.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالأنواع والأشكال الخطابيّة في أنّه خاضع لمعيار الثّقافة، فثقافة ما هي الّتي تمنح شكلا من الأشكال الخطابية سمة الأدبيّة وتسمح له بالانخراط في مؤسسة الأدب.

من هذا المنطلق يصعب أن نفهم الأشكال النثرية القصيرة في "*عيون الأخبار*"*ونستوعبها* ما لم ننظر إليها في إطارها الثّقافي الّذي أنتجها، ومن ثمّ ضرورة النّظر في "*الأدب* " بالاستعمال التّراثي للكلمة، وقد أشار الباحث ***عبد الفتاح كيليطو*** إلى خطورة إسقاط المفهوم الغربي في قراءة التّراث العربي قائلا: « وفرق بين أن نقول الأدب وبين أن نقول La Littérature(...) والملاحظ أنّنا عندما نكتب تاريخ الأدب العربي –وهذا شيء يشكل خطرا كبيرا- نكتبه انطلاقا من مدلول كلمة "Littérature " ؛ أي أنّنا نسقط التّصورات المعاصرة على ما أُلِّف في القرون السّالفة، لهذا يحق لنا أن ندعو إلى تاريخ الأدب العربي يحترم جهد الإمكان المدلول القديم ويبيّن التّطورات الّتي مرّ بها».[1] يشكّل الأدب في التّراث – حسب الباحث- نمطا خطابيّا ينبغي البحث في صفاته البنيوية، مشيرا إلى مفهوم الأدب عند ***ابن المقفع***، بأنّه ما يجب التحلي به من ***مكارم الأخلاق.***

وهي النّتيجة نفسها الّتي توصّل إليها باحث آخر وهو ***عبد العزيز شبيّل*** الّذي عاين المفهوم وتطوّرات استعمالاته في التّراث وهو يبحث عن نظرية للأجناس النّثرية في الدّراسات القديمة، فقد توصّل إلى أنّ مفهوم الأدب في هذه الفترة لم يخرج عن الحكمة والأخلاق وكل ما من شأنه أن يحقّق السّعادة الإنسانية، إنّه " أدب النفس وأدب الدّرس"[2].

تكفي نظرة سريعة في تعريفات الأدب الواردة في المعاجم العربيّة حتّى يتأكّد هذا الاتجاه التّعليميّ التّربويّ للمفهوم، ففي أحد المعاجم المتأخرة وهو ***"كشاف اصطلاحات الفنون"***، ترد سلسلة من التّحديدات الّتي تتّسع لمختلف أشكال القول والفعل حينا، وتضيق لتنحصر في أحد مشتقاته حينا آخر، متّدرجة في ذلك من الأعمّ إلى الأخص، جاء في تعريفه أنّه:« العلم والثّقافة والرّعاية والتّعجب والطّريقة المقبولة

[1]- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، ط2، دار الطليعة، بيروت، 1983. ص 17.
[2]- عبد العزيز شبيل، نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري: جدلية الحضور والغياب، ط1، دار الحامي، تونس، 2001. ص 251.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والصّالحة ورعاية حدّ كل شيء، وهو أيضا علم من علوم العربيّة يتعلّق بالفصاحة والبلاغة(...)، والأدب حسن الأحوال في القيام والقعود وحسن الأخلاق واجتماع الأخلاق الحميدة(...) وهو اسم يقع على كل رياضة محمودة فيخرج بها الإنسان إلى فضيلة من الفضائل، وقال أبو زيد ويجوز أن يعرّف بأنّه ملكة تعصم من قامت به عما يشينه...»[1].

يتضح النّسق الثّقافي للأدب في التّراث على أنّه يشمل كلّ ما يقوّم السّلوك قولا وفعلا، وهو ما أسّس له كل من ***ابن المقفّع*** و***الجاحظ*** في رسائلهما ومؤلّفاتهما المتنوّعة، حيث غدا الأدب « ضمن هذه النّظرة المخصوصة لدور الحكمة في تغيير المجتمع، يتّسع إلى حدٍّ يكاد يتعالى فيه عن منظومة مفترضة للأجناس والأنواع ويستحيل وعاء يحتضن كلّ ما من شأنه أن يخدم هذه النظرة، ويجسّم شروط الحكمة، وبالإضافة إلى ذلك فإنها تربط بشكل متين بين الأدب والعقل ومن ثمة تصل الأدب بالمنطق غاية التّأديب والتّهذيب»[2]، وهنا لابدّ من الإشارة إلى الخلفية الدينيّة الّتي كانت تدعم هذه النّظرة الأخلاقيّة، حيث اعتبر القرآن الكريم وهو الخطاب النموذجي المتعالي معيارا على الصّعيدين الشّكلي والمضموني، وأصبح الكلام العربي يحتلّ مكانة متميّزة بقدر قربه من القرآن أو بعده عنه.

يتبيّن إذن أنّ كلمة أدب في عرف القدماء كانت تحيل على كل ما ينمّي الرّوح والعقل ويخدم مقاصد الدّين الإسلامي، ولئن كان ***ابن المقفع*** و***الجاحظ*** قد أرسيا دعائم هذا المفهوم في صورة تنظيريّة تجريديّة، كما ذهب ***عبد العزيز شبيّل***، فإنّ الجانب التّطبيقي، أو "التّجلي" الحيّ لهذه النّظرة يظهر في المصنّفات الجامعة للأشكال الشّعرية والنّثرية الّتي تصبّ في هذا القالب، وهنا يمكن الحكم ابتداء على مصنف ***"عيون الأخبار"*** أنه يجسّد هذه النّظرة بامتياز، وهذا ما يتّضح في وصف ***ابن قتيبة*** عمله التّصنيفي وشرح أبعاده، يقول:«.. وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدّب تبصرة، ولأهل العلم تذكرة، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدّبا وللملوك مستراحا من كدّ الجدّ

[1]- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تح: علي دحروج، ج1، ط1، مكتبة لبنان ناشرون،1996. ص128.

[2]- عبد العزيز شبيل ، نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري، ص 251.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتّعب. وصنّفتها أبوابا وقرنت الباب بشكله والخبر بمثله والكلمة بأختها ليسهل على المتعلّم علمها وعلى الدّارس حفظها وعلى النّاشد طلبها، وهي لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء وزبدة المخض، وحلية الأدب، وأثمار طول النّظر والمتخيّر من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السّلف. جمعت لك منها ما جمعت في هذا الكتاب لتأخذ نفسك بأحسنها وتقوّمها بثقافتها وتخلّصها من مساوئ الأخلاق كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها وتروضها على الأخذ بما فيها من سنّة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم وتصل بها كلامك إذا حاورت وبلاغتك إذا كتبت، وتستنجح بها حاجتك إذا سألت، وتتلطّف في القول إن شفعت، وتخرج من اللّوم بأحسن العذر إذا اعتذرت، فإن الكلام مصائد القلوب والسّحر الحلال...»[1]، من هذه العبارة الأخيرة يتجلى الاهتمام بالشكل ممثلا في البيان فحتّى يستوفي الكلام شروط الجودة لابدّ أن يجمع إلى المضمون الأخلاقي، الشّكل البياني.

إن تبيّن النّسق الثقافي لكلمة أدب، سيسمح لنا الوعي باستعمالاتها، وفهم تجلّياتها وتمظهراتها كأشكال خطابيّة ومن ثمّ محاولة تصنيفها، ذلك أنّ الأدب كما ***ذهب رولان بارت*** ***(R.Barthes)*** : «ليس موضوعا خارج الزّمان، ليس قيمة خارج الزّمان، وإنّما هو مجموعة من الممارسات والقيم المشروطة بمجتمع معيّن»[2].

يبدو الأدب إذن إطارا جامعا لمختلف الممارسات القوليّة والفعلية وغيرها من أشكال التّواصل، وما يهمّنا في دراستنا هو الممارسة القوليّة أو "الكلام" هذه الكلمة الأخيرة الّتي ذهب الباحث ***سعيد يقطين*** إلى إحلالها محل "الأدب" تجنّبا للّبس الّذي قد يقع في فهم دلالات المصطلح بين الاستعمالين التّراثي والحداثي، وهي خطوة أساسيّة لبناء البحث في أقسام الكلام العربي وأوصافه، بغضّ النّظر عن المتكلّم وزمانه ونوع الكلام المنتَج أو جنسه[3]. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار "الكلام" كتجل قولي(شفوي/ مكتوب) للأدب، يتمّ الانطلاق منه في التّصنيف وهو ما نجده في الدّراسات التّراثية كما

[1]- ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار،تح: محمد الإسكندراني،ط5،مجلد 1،دار الكتاب العربي، بيروت، 2002. ص38.
[2]- رولان بارت، درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بنعبد العالي، ط3، دار توبقال، المغرب، 1993. ص 34.
[3]- سعيد يقطين، الكلام والخبر: مقدمة للسرد العربي، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1997. ص133.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أشار سعيد يقطين، باعتباره جنسا جامعا، مستشهدا بقول ابن مسكويه الشّهير« إنّ النّظم والنّثر نوعان قسيمان تحت الكلام، والكلام جنس لهما».

2. إنّ المتصفّح لـــ "عيون الأخبار" يلاحظ أنّه خاضع لتصنيف معيّن، من حيث تقسيمه إلى كتب وأبواب وفصول، إذ يحوي "عيون الأخبار" بين دفّتيه عشرة كتب هي على الترتيب:(كتاب السلطان، كتاب السّؤدد، كتاب الطّبائع والأخلاق، كتاب العلم والبيان، كتاب الزّهد، كتاب الإخوان، كتاب الإخوان، كتاب الحوائج، كتاب الطّعام، كتاب النّساء) فهذه العناوين تحيل على تصنيف موضوعاتيّ (thématique) لمواد المؤلَّف، يأخذ بعين الاعتبار الاشتراك في موضوع دون إيلاء "الشّكل" أهميّة، وهذا ما نعتبره مسوّغا للعمل الّذي نروم القيام به، حيث لاحظنا مبدئيا أنّ الموضوعات متغيّرة من كتاب إلى آخر، إلاّ أنّ هناك بعض الثّوابت الّتي تتكرّر في كل كتاب و أبرزها أنّه لا يخلو كتاب من كتب "عيون الأخبار العشرة" من جنسيّ الكلام: الشّعر والنّثر.

إنّ الاعتناء بالشكل لا يعني إلغاء الموضوع، أو إحداث المقابلة شكل /مضمون، لأنّهما وجهان لعملة واحدة، وهو التّصور الّذي أقامه الشّكلانيّون الرّوس، والّذي عبّر عنه ***ب.إخنباوم(B .Eikhenbaum)*** في حديثه عن مفهوم الشّكل عندهم، بقوله:«... في الواقع وكما سبق لي أن قلت، فإنّ الشّكلانيّين كانوا قد ضمّنوا مفهوم "الشّكل" معنى التّكامل، ومزجوه لذلك بصورة العمل الفني في وحدته إلى درجة أنّ هذا المفهوم لم يعد يتطلّب أيّ مقابلة إلا بالنّسبة لأشكال شخصيّة ذات صفة جمالية. لقد أبرز تينيانوف بأنّ مادة الفنّ الأدبي متنافرة وتتضمّن دلالات مختلفة، وأبرز أنّ عنصرا يمكن أن يرتقي على حساب عناصر أخرى، بحيث تجد هذه العناصر نفسها، نتيجة لذلك، وقد تغيّرت، وأحيانا انحطّت، وربما صارت مجرد توابع محايدة. ومن هنا يستخلص أنّ: مفهوم المادّة لا يتعدّى حدود الشّكل فالمادة هي أيضا شكليّة، وأنّه من الخطأ الخلط بينها وبين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عناصر خارجة عن البناء. زيادة على ذلك فإنّ مفهوم الشّكل قد أثري بملامح الديّناميكيّة ولذا يجب الإحساس بشكل العمل الأدبي كشكل ديناميكي»[1].

من خلال هذا الطّرح الّذي قدّمه الشكلانيّون الرّوس وأقاموا عليه دراساتهم للأدب أمكنهم التّعرف على أنواع عديدة وإبراز أشكال لم تكن ظاهرة، أو بالأحرى لم تُعطَ لها أهمية عبر تاريخ الدّراسات الأدبية، وهذا ما سيسعى البحث إلى إبرازه من خلال هذه الدّراسة ، حيث هيمنت أشكال نثرية معيّنة في التّراث العربي(الرسالة، الخطابة، المقامة)، في الوقت الّذي ظلّت أشكال كان لها دورها في حركيّة الأدب تحت الظل ولم تَحْظَ بالاهتمام (كالمقتطف والخبر والطّرفة والنّادرة...)، وهذا راجع إلى اعتبارات شتّى اجتماعية، دينية...ليس هذا موضع استقصائها[2].

تبدو الموضوعات متداخلة فيما بينها ومتغيّرة، وعليه لا يمكن اعتبارها أساسا ثابتا للتّصنيف؛ وهذا ما حصل مع ابن قتيبة فعلا، الّذي استشعر صعوبة التّعامل مع المتغيّرات، إذ يشير في مقدّمة كتابه أنّه أورد بعض الأخبار والأشعار في أكثر من باب أو كتاب نظرا لاحتمالها أن تقع في أكثر من موضوع، يقول:«فإنّه ربّ معنى يكون له موضعان وثلاثة مواضع فنقسم ما جاء فيه على مواضعه، كالتّلطف في القول يقع في كتاب السّلطان ويقع في كتاب الحوائج ويقع في باب البيان، وكالاعتذار يقع في باب السّلطان وفي كتاب الإخوان، وكالبخل يقع في كتاب الطّبائع وفي كتاب الطّعام، وكالكبر والمشيب يقع في كتاب الزّهد ويقع في كتاب النّساء»[3]؛ وانطلاقا من هذا، فإن الشكل يعد مدخلا متميزا لتصنيف الكلام العربي،« على أن الشكل يبقى لوحده عاجزا إذا لم يتقاطع مع الغرض والمعنى»[4].

ننطلق من التّصور الّذي يرى الشّكل بمثابة الإطار الحاوي لتنوعات شديدة للكلام العربي، وصاحب هذا الطرح هو ***عبد الفتاح كيليطو*** في افتتاحية كتابه "***المقامات: السرد والأنساق الثقافية***"، حيث اعتبر المقامة شكلا تندرج تحته أنواع

[1]- تزفيتان تودوروف، نظرية المنهج الشكلي:نصوص الشّكلانيين الرّوس، تر: إبراهيم الخطيب،د ط،مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،د ت، ص 59.
[2]- يراجع: عبد الله إبراهيم، التلقي والسياقات الثقافية، ط2، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005. ص91.
[3]- ابن قتيبة، عيون الأخبار، مج 1، ص 42.
[4]- رشيد يحياوي ، الشعرية العربية الأنواع والأغراض، ط1، إفريقيا الشرق، المغرب،1991. ص 7.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عديدة مماثلا إياها بالقصيدة كشكل[1]، فنلاحظ أنّ المفهوم يوازي مفهوم المقولة الجامعة، أو الجنس من منظور سعيد يقطين،وفي "عيون الأخبار" سنجد أشكالا تتنوع بداخلها الأنواع فـ*"الخبر"* شكل تنضوي تحته أنواع متعدّدة ستتبين عبر مراحل البحث.

أما سمة *" القصر"* الملحقة بـ"الشكل النثري"، فقد فرضتها طبيعة النّصوص الّتي تتوفر عليها المدونة، حيث تبرز سمة القصر كخاصية شكلية مهيمنة، على الرّغم من التّساؤل الّذي يطرحه هذا المعيار الكمي المتمثّل في:ما هي حدود القصير؟ وما الفرق بين القصير والمختصر والمقتطف والوجيز؟ولماذا ينعدم نص طويل في مصنف كمصنف عيون الأخبار؟ وإلى أي مدى تصلح خاصية القصر معيارا شكليا للتّصنيف؟

تتجاوز مسألة الطّول والقصر في التّراث تتجاوز مجرد المعيار الكميّ، فهي إفراز تصور بلاغي يرى في الإطناب منقصة، بحكم أنّها ثرثرة من فضول الكلام، وفي القصر والإيجاز مزيّة ومحمدة، بل إنّ البلاغة كلها تتلخص في تحقيق الإيجاز، وهي خاصيّة تجعل الكلام إيحائيّا مشبعا بالدلالات ممّا يتيح إمكانات تعدّد المعنى، واحتمالات القراءة المتجدّدة وإتاحة الفرصة للمتلقّي بإدخاله في دورة الخطاب أو التّواصل.

هكذا تبدو سمة القصر بمعنى الإيجاز في التّراث معيارا يحدّد اندراج الكلام ضمن الأدب، أو خروجه عنه، وهذا ما يتحقّق في "عيون الأخبار"، ويتّضح جليا عند مقارنته بمصنف أخبار آخر لمواطن ابن قتيبة المعاصر له وهو مصنّف "الأخبار الطّوال"[2] لأبي حنيفة الدينوري (ت 282هـ) الّذي يعدّ مؤلفا تاريخيّا محضا.

أكيد أنّ هذه الإشكالية لن يتمّ الإلمام بها إلاّ بعد أن يستوفي البحث غايته ويصل إلى نقطة النّهاية، ولكن حسبنا أن نشير هنا إلى أنّه في الغالب تكون الأشكال القصيرة أنوية لأشكال طويلة تظهر لاحقا، فالبسيط يكوّن المركّب وهكذا في سلسلة تراتبية وقد حاول برنار روخوموفسكي (***Bernard Roukhomovsky***) من خلال الدّراسة الّتي

[1]- عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، المغرب، 1993 . ص05.

[2]- أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، الأخبار الطّوال،تح: عمر فاروق الطّباع، دط، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، 1955.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قدّمها بعنوان " *قراءة الأشكال الوجيزة*" ***Lire les formes brèves*** أن يحدّد حدود القصر بتفريقه بين الوجيز le bref والقصير le court والمختصر le concis، ويضعها في تراتبية : القصير> المختصر> الوجيز، مستأنسا في تعريف الوجيز بتحديد نيتشه له "الأقل عددا من الأصوات والعلامات و الأكثر طاقة"[1]، كما لا ينبغي إغفال عامل الشفوية الذي يميز هذه الأشكال، فعلى الرّغم من وجود عدّة أشكال كتابيّة في "*عيون الأخبار*" كالرسائل والعقود وبعض الوصايا، إلاّ أنّ هذا لا ينفي هيمنة النّظرية الشّفوية[2]، الّتي ستسمح هي الأخرى بنوع من التّمييز بين هذه الأشكال، ومعلوم أنّه يصعب حفظ النّثر على عكس الشّعر الّذي يساعد وزنه وإيقاعه على حفظه وروايته وتداوله.

3. جرت عدّة تصنيفات للأدب منذ ***أفلاطون أرسطو***[3] إلى يومنا هذا، وفي كل عملية تصنيف تأسيس لنظريّة ما، أو لنقل العكس كل عملية تصنيف تقف وراءها نظريّة ما، ولأنّ الأدب في حركيّة وتحوّل وكذا الفكر والنّظريّة، فإنّ تعدّد التّصنيفات سيكون أمرا مسلّما به. نقف في هذا البحث بين مدّ وجزر، بين النّظري والتّطبيقي، بين المجرّد والملموس، فلا يمكن أن ننطلق لتصنيف مواد "عيون الأخبار" النّثرية دون زاد معرفيّ وخلفية نظريّة تمدّنا بالأدوات المساعدة، كما لا يمكننا أن نطبّق آلياً ما وجد من تصنيفات دون مراعاة خصوصية المدوّنة الّتي –من المؤكّد- تخرج كثيرا أو قليلا عن النظريّة، هذه الجدلية تحكم كل عمل يتّصل بالنّص الأدبي سواء كان تنظيرا أو تحليلا فكلٌّ منهما لا ينفصل عن الآخر ، وهو ما أشار إليه ***جيرار جينيت (Gérard Genette)*** وهو بصدد البحث عن نظريّة للسّرد انطلاقا من تحليل رواية "بحثا عن الزمن الضائع" لمارسيل بروست، يقول: «أعترف أنّني إذ أبحث عن الخصوصيّ أجد الكونيّ، وإذ

---

[1]- Bernard Roukhomoveskey, Lire les formes brèves, édition Nathan, Paris,2001,p4.

[2]- لقد حاول الباحث عبد الله إبراهيم استقصاء هذه النظرية مفصّلا في أسباب طغيان الشفوي والابتعاد عن الكتابة في الثقافة العربية، وهيمنة أصول النظرية رغم التدوين.(ينظر الفصل الأول بعنوان النظرية وتقييد المنطوق من كتابه السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت.2002)

[3]- تتبّع جيرار جينيت هذه التّصنيفات وسيرورتها في الدّراسات الغربيّة منذ أفلاطون في دراسته النّقدية التأسيسية الهامة"مدخل إلى جامع النّص"، مشيرا إلى أنّ الثّلاثيّة (ملحمي،درامي،غنائي) الّتي تفرّعت عنها كل التّصنيفات اللاحقة، وقد نفى نسبتها إلى أرسطو كما شاع، ورد نسبتها إلى أفلاطون.ينظر: مدخل إلى جامع النّص، تر:عبد الرحمان أيوب،ط2،دار توبقال،المغرب،1986. ص 16.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أريد أن أجعل النظريّة في خدمة النّقد أجعل النّقد في خدمة النظريّة بالرّغم منّي. وهذه المفارقة هي مفارقة كل شعريات، ولعلّها أيضا مفارقة كل نشاط معرفيّ، ممزّق دوما بين تينك الفكرتين الشّائعتين اللّتين لا مفرّ منهما، واللّتين مفادهما ألاّ مواضيع إلاّ المواضيع المفردة، وألاّ علم إلا علم العام».[1]

يروم عمل التّصنيف في "عيون الأخبار" إيجاد الخصوصيّ، وعليه نرى ضرورة الانطلاق من وصف واستقراء ما في المصنّف من أشكال كخطوة أولى، ثمّ الاستنارة بما قُدِّم من تصنيفات وتنظيرات، وهي كثيرة ومتنوعة. ولتفادي الخوض في عرض منجزات نظريّة الأنواع والتصنيفات المعطاة والتّطورات الّتي مرّت بها-فهذه في حدّ ذاتها تستدعي بحثا مستقلا يتتبّع مسارها وتحولاتها- فحسبنا أن نشير إلى محاولات التّصنيف الّتي تناولت الكلام العربي، وأهمّها ثلاث دراسات مغربيّة حديثة - فيما اطّلعنا عليه- لكلّ من رشيد يحياوي،عبد الفتاح كيليطو، وسعيد يقطين.

ففي الدّراسة الّتي قدمها الباحث ***رشيد يحياوي*** حول تصنيف الأنواع والموسومة بـــ *"مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية"* عرض للتّصنيفات الغربيّة، والّتي هي في رأيه غالبا ما تكون غير مبرّرة أو ضعيفة التّماسك[2]، ولهذا ينبّه الباحث إلى أنّ الاستفادة منها في فهم التّراث العربي لا تمنع من مراعاة خصوصيّته انطلاقا من أنّه «كان لحضور النص القرآني الكريم من جهة وغياب الثّلاثية اليونانية أثر عميق في توجهاتها»[3]. وعليه يتجاوز الباحث مبدئيا التّصنيف الثنائي شعر/نثر والّذي نجده مكرّسا في الدّراسات التراثية العربية، كما يرفض أيّ تصنيف إحصائي، أو ثلاثي (قديم: غنائي، ملحمي، درامي، أو حديث: قصة مسرحية شعر)، ويقترح تصنيفا رباعيا منطلقا من السّرد والحوار باعتبارهما صيغتين ثابتتين في حين اعتبر الصّفة الشّعرية أو النّثرية غير ثابتة، ومن خلال تقاطع هذه المستويات، يخرج بالخطاطة

[1]- جيرار جينيت، خطاب الحكاية: بحث في المنهج، تر: محمد معتصم وآخرون،ط3، منشورات الاختلاف، الجزائر،2003. ص 16.
[2]- ينظر: رشيد يحياوي، مقدّمات في نظريّة الأنواع الأدبيّة ، ط2، إفريقيا الشّرق، المغرب،1991. الفصل الثالث.
[3]- م ن، ص 87.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التّالية:[1]

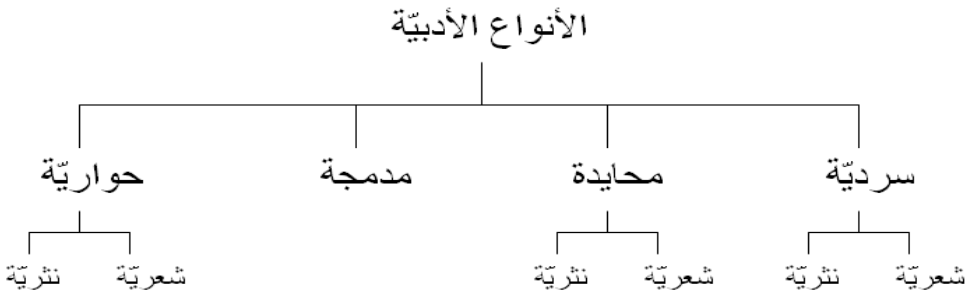

يعمد الباحث إلى شرح هذا التّصنيف بإعطاء أمثلة من فترات وثقافات مختلفة، ممّا يشي باتساع ومرونة هذا التّصنيف، ولكن بتركيز الباحث على الصيغة (سرديّة، حواريّة) يهمل عناصر أخرى من شأنها أن تجلي حدود النّوع وتبرزه، ولهذا نعرض لدراسات أخرى ركّزت على جوانب أخرى.

بالموازاة مع ما قدمه رشيد يحياوي على عموميته واتساعه، ثمّة اقتراح قدّمه ***عبد الفتاح كيليطو*** لتصنيف يرتكز على تحليل علاقة المتكلم بالخطاب،مركّزا على مسألة الإسناد في الكلام العربي، فيترتب عن ذلك أربعة أنماط هي:[2]

- المتكلم يتحدث باسمه؛
- المتكلم يروي لغيره؛
- المتكلم ينسب لنفسه خطابا لغيره؛
- المتكلم ينسب لغيره خطابا يكون هو منشئه.

ثم ما يلبث أن يختزل هذه الأنماط الأربعة إلى نمطين رئيسيين تتفرع عنهما أنماط أخرى نمثّلها في الشكل الآتي:

[1]- رشيد يحياوي، مقدمات في نظرية الأنواع، ص 85.
[2]- عبد الفتاح كيليطو،الأدب والغرابة، ص25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

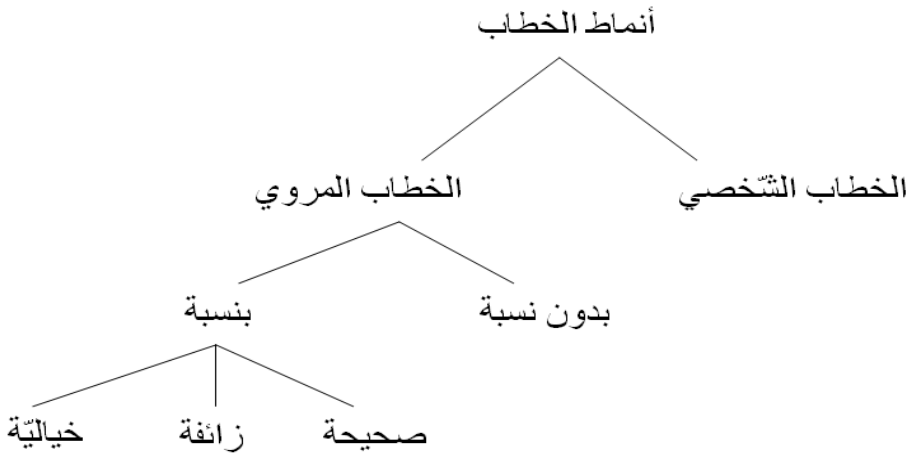

يبدو اقتراح كيليطو على قدر شديد من الاختزال، رغم الالتفات الهام إلى دور المتكلم في تصنيف الخطاب، باعتبار أنّه لا يدرج اعتبارات أخرى هامّة في التّصنيف.

من بين الدراسات التي تعتبر أكثر إلماما بمسألة تصنيف الأدب العربي، التّراثي منه على وجه الخصوص، ما قدّمه ***سعيد يقطين*** في كتابه *"الكلام والخبر:مقدّمة للسّرد العربي"* مستوعبا للدّراسات الغربيّة ومحاولا تجاوزها من خلال استثمار المحاولات التّراثية لتصنيف الكلام العربي من جهة، والتّأمل في منجزاته والاشتغال على نصوصه من جهة أخرى، بهدف إقامة تصور متكامل يسعى إلى تأطير مختلف أقسامه وصفاته.

ينطلق سعيد يقطين في تمييزه بين الأجناس من مقولة" ***الصيغة(mode)***" مشيرا إلى أنّ هذا المصطلح متعدد الدلالة على كثرة استعماله[1]، ولهذا يوضّح بأنّه يستعمله قريبا من المعنى الّذي يعطيه إيّاه ***جيرار جينيت*** والسّرديون بوجه عام، وإذا كانت ***الصيغة*** عندهم تعني ***طريقة تمثيل الأحداث أو تقديمها بواسطة اللغة*** – كما عند أرسطو وأفلاطون ولهذا ينطلقون دائما من الثلاثية: الملحمي الغنائي والدرامي-، إلاّ أنّ الباحث ينطلق من منطلق مغاير تماما، فهو يرى الصّيغة " كامنة في طرائق التّمثيل الكلامي بوجه عام" وأنّه في التّصور الأوّل يتمّ التّقابل بين اللّغة والعالم، فاللّغة تمثّل أو

[1]- في كتابه"تحليل الخطاب الرّوائي" بسط سعيد يقطين الحديث حول مختلف الاستعمالات والدّلالات التي اكتساها المصطلح عند الباحثين الغربيين: البويطيقيّون منهم والسيميائيّون. يراجع: تحليل الخطاب الرّوائي(الزّمن السّرد التّبئير)،ط3، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، 1997. ص 196 ومابعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تحاكي أحداث العالم بواسطة سرد خالص أو مختلط أو محاكاة، أمّا في تصوّره " فيغدو التّمثيل الكلامي عالما مستقلاً بذاته".[1]

وباعتماد الصّيغة معيارا ثابتا للتّصنيف يخلص سعيد يقطين إلى أنّ ثمّة صيغتين للكلام العربي هما: *القول والإخبار*، وهما يتحقّقان بإحدى الأداتين: الشعر أو النثر، وبمراعاة المتكلم وصيغة التّلفظ -دون النّظر إلى الأداة -ينتج قسمان للكلام هما:

- ***الحديث*** : يؤديه المتكلم
- ***الخبر***: ويؤديه الراوي

ثمّ يعيد دمج الأداة مع العناصر الأخرى ليصل إلى تقسيم ثلاثيّ للكلام العربي، يقول:« نخلص من هذا الطرح أنّنا بانطلاقنا من صيغتي الكلام (القول والإخبار)، وبالنظر إلى الأداة (شعر نثر)، وإلى وضع صاحب الكلام (المتكلم الراوي)، نميز بين ثلاثة أجناس هي الشعر والحديث والخبر»، وفق الشكل الآتي :[2]

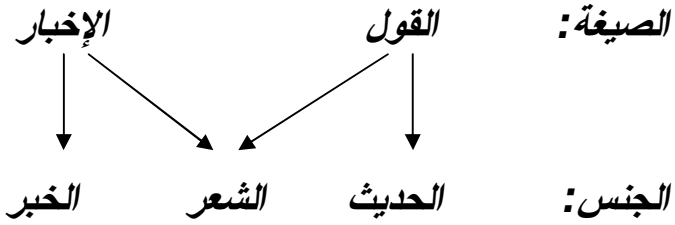

تتحدّد إذن المقترحات النظريّة الّتي قدّمها سعيد يقطين كأرضيّة يتمّ الانطلاق منها لتصنيف الأشكال النّثرية الواردة في "*عيون الأخبار*".

تتقدّم الأشكال النّثرية القصيرة في "عيون الأخبار" باعتبارها أشكالا سرديّة بالدّرجة الأولى، أو بالأحرى نجدها مؤطّرة بالسّرد عبر رواة وناقلين للخبر في سلسلة إسنادية(العنعنة) متفاوتة الطول والقصر، وعليه نميّز بداهة بين سند الخبر ومتنه، حيث يمدّنا السّند بمصدر الكلام وصاحبه –غالبا- وأحيانا بنوعه وتسميته، وهنا يتقدّم ابن قتيبة باعتباره ناقلا أو وسيطا في تقديم؛ أو على الأصح تدوين هذا الكلام مشكّلا بذلك الحلقة الأخيرة من حلقات الإسناد. يمكننا التّمييز إذن بين النّاقل والرّاوي والمتكلّم مع

[1]- سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 192.
[2]- م ن، ص 194.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عدم نفي التباس أحدهما بالآخر عندما نكون بصدد الشّخص نفسه يؤدّي دورين، وهكذا نجد:

✓ ***الناقل - ابن قتيبة***: دائما وأبدا سواء ظهر في الإسناد ما يحيل عليه مثل ضمير النون أو التاء في صيغ (حدثنا، رأيت، قرأت..) أو لم يظهر ما يحيل عليه (روى فلان قال..)

✓ ***الراوي - الرواة***: هم سلسلة الأشخاص الذين تواتروا أو عملوا على حفظ ونقل الكلام (بطريقة ما) عن قائله ، وهذا ما يقابل الذّات في مقولة الصّوت عند جيرار جينيت، إذ يقول: « الذّات هنا ليست من يفعل الفعل أو يقع عليه الفعل فحسب، بل هي أيضا من ينقله(وهو قد يكون ذلك الشخص أو شخصا آخر) وعند الاقتضاء، كل أولئك الّذين يساهمون ولو سلبيا في هذا النّشاط السّردي»[1]، على أنّ ابن قتيبة قد يكون ناقلا –راويا في كثير من الأحيان عندما يروي مباشرة عن صاحب الكلام (سماعا- قراءة)

✓ ***المتكلم:*** وهو النّهاية الّتي تصل إليها عمليّة الإسناد، والبداية الّتي يبدأ بها المتن، وبهذا فهو بمثابة العتبة الّتي تصل الداخل (المتن) بالخارج (الإسناد)، وكلامه هو ما يشكل بؤرة الاهتمام في بحثنا، وهذا المتكلم سيكون أحدث اثنين: إمّا ***متحدثا*** أو ***مخبرا***، بالمعنى الّذي حدده سعيد يقطين للحديث والخبر، وهنا يتّضح شكلان جامعان لأنواع النّثر الواردة في "*عيون الأخبار*" وعليه سيخصص الفصل الأول لكل الأنواع النّثرية الّتي تندرج ضمن الحديث، والفصل الثاني للأنواع الّتي تدخل في شكل الإخبار.

[1]- جيرار جينيت ، خطاب الحكاية. ص 228.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الأول: أشكال الحديث

بين

المنطوق والمكتوب والمأثور

1- المخاطبات

2- المكاتبات

3- المأثورات

- تركيب

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الفصل الأول: أشكال الحديث بين المنطوق والمكتوب والمأثور

قال يحيى بن خالد: «النّاس يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون ويتحدّثون بأحسن ما يحفظون»

[عيون الأخبار/مجلد2/كتاب العلم و البيان/ص 529]

تمهيد:

أشرنا في التّأطير الّذي صُدِّر به البحث إلى أنّ الوقوف على تجليّات الأشكال النّثرية القصيرة في "عيون الأخبار" يسمح بتمييز قسمين جامعين تنضوي تحت كل منهما أنواع متعدّدة، وهذا بالاعتماد على الصّيغة الّتي يتقدّم الكلام بها، فالمتكلّم في الحديث يقول أو يتحدّث متوجّها بخطابه إلى طرف آخر، معبّرا له فيه عن أفكاره وإحساساته ليشركه فيها (شكوى، حنين، عتاب...)، أو يتوجّه إلى المخاطب ليدفعه إلى شيء ما إمّا بفعله أو بتركه(أمر، نهي، سؤال نداء...)، وهنا تكون العلاقة «علاقة اتّصال بين القائل والقول والمخاطب»[1]. وعلى هذا الأساس تدخل في هذا الشّكل أنواع مختلفة الأصل (شفوية/ كتابية)، ومتباينة الأغراض والمقاصد (وعظيّة، إرشاديّة، تعليميّة..) ومتفاوتة الحجم(قصيرة ، قصيرة جدا أو مقتطفة...)، وقد اجتهدنا في جمعها ضمن أنساق عامة مشتركة، اصطلحنا عليها بالمخاطبات والمكاتبات والمأثورات.

[1]- سعيد يقطين، الكلام والخبر. ص 190.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1- المخاطبات:

المخاطبات الّتي نُعنى بها في هذا المبحث تخصّ كل تجليّات الحديث الشّفوية، أو الّتي قيلت في مجالس ومناسبات معيّنة، ثمّ تناقلها الرّواة ودوّنت بعد ذلك، وعليه تندرج ضمنها المخاطبات والمحاورات والمساجلات والوصايا والمناصحات ...وهي أحاديث تدور بين أطراف حاضرة ، وإذ بنينا المصطلح على وزن "مفاعلة" الّتي من دلالاتها المشاركة والتّفاعل، فلأنّ هذه النّصوص يشترك في إنجازها كل من المخاطب والمخاطب، سواء بشكل مباشر أو ضمنيّ، ويكونان حاضرين معا زمن المخاطبة، يجمعهما في ذلك مقام أو مجلس معيّن، ومن أبرز أنواع المخاطبات الحاضرة في عيون الأخبار "الخطبة"، الّتي حظيت باهتمام الدّارسين في التّراث العربي، فاهتمّوا بتحديد ماهيتها واستجلاء مكوّناتها وخصائصها ، نظرا للدّور الّذي تؤدّيه على أصعدة الحياة الثّقافية باعتبارها شكل البيان الأسمى من المنثور، والاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة باعتبارها خطابا تواصليّا إبلاغيّا يحقّق مقاصد الخطيب، حيث أكدّ البلاغيون أنّ « الخطيب المتقن يمتلك من الأدوات اللّغوية ما يجعله يصوغ مختلف المواقف ويعبّر عن كلّ الأفكار دون توقّف أو تقطّع ولذلك شكّلت الخطابة عندهم درجة عالية من البيان والفصاحة وجعلوها أمثلة للكلام الجيّد. وبخاصّة خطب الرّسول والصّحابة والتّابعين لهم في امتلاك البيان»[1]، فلا بدّ من التّعرض إذن للمنجزات الّتي قدّمت في التّراث بصدد هذا الشّكل النّثري، والّتي ستساعدنا على فهم تصوّر أسلافنا للأشكال النّثرية، وكيف استفادوا من ثقافات غيرهم وأضفوا عليها من خصوصيّتهم، ما جعلهم يتفاعلون معها ويتجاوزونها أحيانا، فقد عرفت العرب الخطابة ومارستها قبل أن توجد تنظيرات نقدية أو بلاغية، ولكنّها استفادت من منجزات الآخر ونعني في هذا المجال ما

[1]- رشيد يحياوي، الشعرية العربية، ص 120.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قدّمه ***أرسطو***، وعليه سنعرض له ها هنا باعتباره أوّل من نظّر لهذا الشّكل الخطابي وتأثّر العرب ببعض ما قدّمه، كما سنلفي عند كلّ من الجاحظ وابن وهب.

1-1-وجهات نظر في المخاطبات:

1-1-1-الخطابة والنظرة المنطقية لأرسطو:

تناول أرسطو الخطابة في كتابه الموسوم بـــ"الخطابة" (Rhétorique)، بغية تزويد الخطباء بوسائل البراهين الصّحيحة، لإقرار الحق والعدل بعد انتشار السفسطائيّين الّذين اتّخذوها مطيّة ووسيلة للتّعمية والتّمويه، فعمد إلى تحديد ماهيتها وتبيّن سماتها الفنيّة وأقسامها وصلتها بالمنطق.

جاء في الكتاب الثاني من "***الخطابة***" تعريف أرسطو للخطابة بأنها **:«** قوّة تتكلّف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة»[1]، وعليه فإنّ الإقناع يقع في الحق والباطل، وبالتّالي ستؤدي الخطابة دور المنطق للبرهنة على النّقيضين، فكما يتمّ التّمييز بواسطة المنطق صحيح القياس من فاسده، يمكن بالوسائل الفنيّة للخطابة تمييز الحقّ من الباطل.

لا تتّجه الخطابة –باعتبار طبيعتها الإقناعية- إلى مخاطبة العقل فقط، بل ترمي إلى التّأثير في مشاعر المتلقّين واستمالتهم بواسطة الأسلوب، وعلى هذا الأساس نجد أرسطو قد اهتم بالأطراف الثلاثة للعمليّة التّواصلية، فقد حدّد شروط الخطيب وصفاته واهتم بأجزاء الخطبة والأسلوب الّذي تأتي فيه، كما راعى أقدار المتلقّين ومقاماتهم. من هذه الزاوية الأخيرة حدد ثلاثة أنواع للخطابة حسب أنواع المتلقّين وانتماءاتهم الثّقافية، يقول**:«** قد توجد أنواع الريطورية [الخطابة] ثلاثة عددا، وكذلك يوجد

[1]- أرسطو طاليس، الخطابة: الترجمة العربية القديمة، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم –لبنان، 1979. ص09.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السّامعون للكلام والكلام نفسه مركب من ثلاثة: من القائل، والمقول فيه، ومن الذي إليه القول. والغاية إنّما هي نحو هذا، أعني السامع»[1].

وبما أنّ المتلقّين في عصر أرسطو كانوا إمّا نظّارا وإمّا قضاة، والقضاة بدورهم إمّا في المحاكم وإمّا في مجالس الشّورى والبرلمانات، «إذا يكون الكلام الريطوري ثلاثة أجناس: مشوري، و مشاجري، وتثبيتي»[2]، ويختصّ كل نوع منها حسب أرسطو بموضوعات أو أغراض، فالتثبيتيّة (الاستدلالية) ترمي إلى المدح أو الذّم، والخطابة المشاجريّة (القضائيّة) يكون موضوعها الاتّهام أو الدّفاع، أما المشوريّة فموضوعها النّصح بفعل شيء أو تركه.

على الرّغم من أنّ هذه الأنواع متباينة الصّيغ والموضوعات إلا أنّ أنواع الحجج المستعملة تعدّ نقطة مشتركة بينها، وكلام أرسطو فيها طويل ومفصّل يستغرق عدّة فصول من الكتاب، ولهذا نختزل تصنيفه لها في المخطط التّالي:

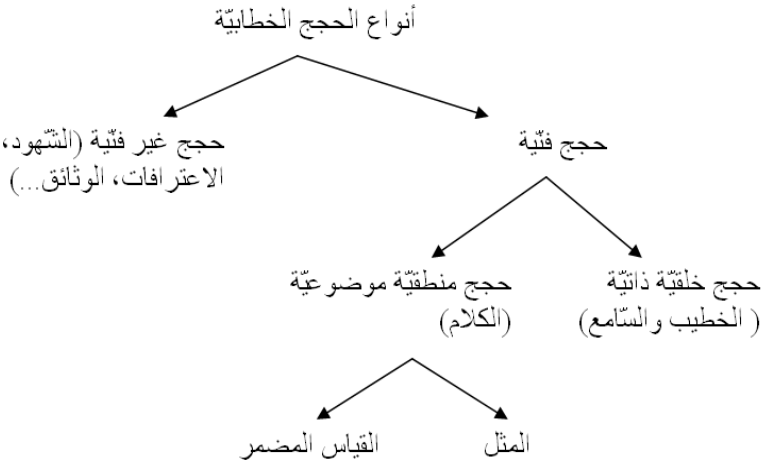

وخلاصة القول أنّ هذه القواعد والأسس النظريّة الّتي قدّمها أرسطو حول الخطابة لم تأت من العدم، وإنّما كانت نتاج تأمّله واشتغاله على "نصوص" الخطابة الّتي كانت في عصره، حيث عمل على استنباط الثّوابت والمتغيّرات مما قد يساعد على فهم الخطابة في أيّ عصر أو ثقافة مادامت الثّوابت مقولة تتعالى على الزمان والمكان.

[1]- م ن، ص16.
[2]- م ن ، ص17.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1-1-2- الخطابة والنظرة البيانية للجاحظ:

لقد اطّلع أسلافنا على مؤلَّف أرسطو في الخطابة ونقلوه كما نقلو عديدا من الكتب في شتّى المعارف...وتفاعلوا وانفعلوا بما نقلوه ، وإذا كانت الخطابة عند أرسطو ذات بُعد منطقي حجاجي، فإنّها في الثّقافة العربيّة نموذج البيان والفصاحة، كما تتقدّم من خلال مؤلَّف ***الجاحظ " البيان والتبيين"***، هذا الكتاب الّذي يعتبر « محاولة لوضع نظريّة لبلاغة الإقناع، مركزها الخطاب اللّغوي الشّفوي، وهامشها كلّ الوسائل الإشاريّة والرّمزيّة، وأساس الإقناع الخطابي مراعاة أحوال المخاطبين»[1]، حيث يتعرّض الجاحظ لكل ما يخص الخطيب والمستمع ناهيك عن تبيّن خصائص الخطب وما يستحبّ فيها أو يكره، وحتّى وإن اتّسم عمله بعدم الإحكام في استنباط القوانين الخاصّة بهذا الشّكل الخطابي كما رأينا مع أرسطو، إلاّ أنّ ما أورده من آراء واستشهادات بنصوص عديدة للخطب ينمّ عن وعي الرّجل بمعالمه؛ فعندما يتحدّث عن عيوب النّطق والكلام وهيئة الخطيب وإيماءاته وحتّى لباسه فهو يضع شروطا للخطيب النّاجح ، وعندما يولي أهميّة لأقدار المستمعين ومقاماتهم فهو يهتمّ بالمتلقّي، وعندما يتحدّث عن شروط "أحسن" الكلام و"أجوده" فهو يهتمّ ببناء النّص.

يحدّد الجاحظ شروط الخطبة من خلال قول أحد العلماء:« رأس الخطابة الطّبع، وعمودها الدّربة وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ»[2]، فالخطابة فن شفوي يركّز كثيرا على الجانب النّطقي للكلام، وفي هذا القول نلمح أوجه التّقارب بين شروط قول الشّعر وشروط قول الخطبة، ممّا جعلها تتبوّأ في مرحلة من المراحل مكانة تكاد تتفوّق على الشعر، كما صرّح بذلك ***عمرو بن العلاء*** فيما نقله ***الجاحظ***:«كان الشّاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشّعر الّذي يقيّد عليهم مآثرهم ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم ويُهِيب من فرسانهم ويُخوِّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلمّا كثر الشّعراء واتّخذوا الشّعر مكسبة ورحلوا إلى السّوقة، وتسرّعوا إلى أعراض النّاس صار الخطيب

[1]- محمد العمري، نظرية الأدب في القرن العشرين،ط2 ، إفريقيا الشرق، المغرب، 2004. ص125.
[2]- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: علي أبو ملحم،مج1 ،ط2، منشورات دار مكتبة الهلال، لبنان، 1992، ص 59.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عندهم فوق الشّاعر، ولذلك قال الأوّل: الشّعر أدنى مروءة السّري وأسرى مروءة الدنيّ»[1]، هذا ويستشهد الجاحظ بنصوص كثيرة لأشهر الخطباء وعلى رأسهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم والصّحابة باعتبار كلامهم من أحسن الكلام وأجوده، فهو يعتبر نموذجا راقيا لابدّ من تكريسه في الممارسات الكلاميّة.

لئن كان الجاحظ لا يهتمّ بصناعة المفاهيم، إذ لا نجد تعريفا أو تحديدا للخطبة، وهذا قد يُعلَّل بكون الجاحظ تناول الخطابة كتجلٍّ للبيان بمفهومه الموسّع، إلاّ أنّه اهتمّ بكل ماله علاقة بتحقيقه ومنها الخصائص البلاغيّة للخطبة، وتقسيماتها المختلفة، كما يلاحظ اهتمامه الشّديد بالإيجاز، إلى الحدّ الّذي ينطبق فيه مفهوم البلاغة بالإيجاز، ومن هنا كان تفضيله للخطب القصيرة، يقول:«..ثمّ اعلم بعد ذلك أنّ جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر، والبدو والحضر، على ضربين، منها الطِّوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه. ومن الطِّوال ما يكون مستويا في الجودة، ومتشاكلا في استواء الصّنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان، والنّتف الجياد وليس فيها بعد ذلك شيء يستحقّ الحفظ، وإنّما حظه التّخليد في بطون الصّحف. ووجدنا عدد القصار أكثر، ورواة العلم إلى حفظها أسرع...»[2].

نتبيّن من خلال كلام الجاحظ أنّ صفة ***القصر*** كانت مستحبّة في الخطب لأنّها تساعد على الحفظ والروايّة، وهنا تتجلّى سلطة الثّقافة الشفويّة، على التّفكير الجاحظي، وتتأكّد بذلك سمة الشّفوية كعنصر ثابت في المخاطبات.

نسجل ملاحظة أخرى هي اهتمام الجاحظ بمقدّمات أو افتتاحيات الخطب باعتبارها مفاتيح لفهم الخطب واستقبالها، فالمقدّمة توجّه المستمع إلى موضوع ومقصد الخطبة، وفي هذا يقول مخاطبا قارئه:«...فَرِّق بين صدر خطبة النّكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح وخطبة التّواهب، حتّى يكون لكل فن من ذلك صدر يدلّ على عجزه، فإنّه لا خير في كلام لا يدلّ على معناك ولا يشير إلى مغزاك وإلى العمود الّذي قصدت، والغرض الّذي إليه نزعت»[3]، يتّضح من خلال هذا الكلام أن القدماء

[1]- م ن ، مج 1، ص 203.
[2]- الجاحظ، البيان والتبيين ، مج2، ص 114.
[3]- م ن، ص ن.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ميّزوا أنواعا للخطب، باعتبار الموضوع أو المناسبة والمقام، وهذا ما يدخل في تغيّرات المخاطبات، الّتي على أساسها يمكن التّمييز بين أنواع مختلفة.

نعثر في ثنايا "البيان والتبيين" على قول آخر يقدّم فيه الجاحظ تقسيما مختلفا للخطب على أساس سمات شكلية تتعلّق بالمقدّمة حيث أنّ «خطباء السّلف الطيّب، وأهل البيان من التّابعيين بإحسان، مازالوا يسمّون الخطبة الّتي لم تبتدئ بالتّحميد، وتستفتح بالتّمجيد" البتراء"، ويسمون الّتي لم توشّح بالقرآن، وتزيّن بالصّلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم "الشوهاء"»[1]. تنطق هذه التّسميات المصطلح عليها بأحكام نقديّة توحي بنظرة تهجينيّة لكل خطاب من شأنه أن يسيء أو يخرج عن تقاليد الخطاب العربي الإسلامي.

فهذه إذن قراءة أوّلية "للبيان والتبيين" تمثّل محاولة لاستجلاء نظرة الجاحظ البلاغية للخطابة باعتبارها أهم أنواع المخاطبات الشّفوية ، وقد عمدنا إليها علّها تساعدنا على فهم هذه الأنواع الواردة في "***عيون الأخبار***"، لما وجدنا من نقاط التّقارب بين الرجلين، إذ عاشا في عصر واحد وأخذ كلّ منهما عن الآخر، ولئن كان الجاحظ قد جمع بين طرفي الثنائية (مفاهيم- تجليات)، فإنّ ابن قتيبة آثر أن يقدّم نصوصا ليجعلنا أمام التّجليات مباشرة، والّتي ما من شكّ تخفي نظرة تستوقفنا لاستجلائها. .

1-1-3-ابن وهب: على خطى الجاحظ وأرسطو:

قبل أن نتحوّل إلى "***عيون الأخبار***"، نرى من الضّرورة التّعرض لمؤلِّف آخر سار على خطى الجاحظ وتجلّى التّأثير الأرسطي في عمله بشكل أوضح، فقدّم تصوّرا أكثر اكتمالا وشموليّة، للكلام بصفة عامّة وللخطابة بشكل أخص، ألا وهو ***ابن وهب الكاتب*** في مؤلفه ***"البرهان في وجوه البيان"***.

اهتم ابن وهب بتقسيم الكلام وتحدّث عن قسمين رئيسيين هما: ***المنظوم والمنثور***، ورأى أن الثّاني يحوي أربع فنون رئيسية،« فأمّا المنثور فلا يخلو من أن يكون خطابة، أو ترسلا، أو احتجاجا، أو حديثا »[2]، ويتتبّع في هذه الأنواع المختلفة ما

[1]- م ن، ص06.
[2]- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني محمد شرف،د ط، مكتبة الرسالة ، مصر،د ت.ص 150.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يجمع بينها وهو البيان فـــ"البلاغة في الجميع واحدة"، وهكذا تشكّل البلاغة نمطا يجمع بين أنواع الكلام و أشكاله المختلفة.

على خلاف الجاحظ الّذي لم يولِ التّعريفات والتّحديدات بالا، نجد ابن وهب يُعنى بالتّحديد اللّغوي والاشتقاقي للخطابة، ويتحدّث عن خصائصها ومكوّناتها بطريقة منهجيّة منظّمة، مستشهدا بأمثلة كثيرة. يورد في تعريفها:« إنّ الخطابة مأخوذة من أخطبُ خطابةً كما يقال: كتبتُ أكتبُ كتابة، واشتقّ ذلك من الخَطْب وهو الأمر الجليل، لأنّه إنّما يقام بالخطب في الأمور الّتي تجلّ وتعظُم(...) والخطبة الواحدة من المصدر كالقومة من القيام، والضربة من الضّرب والخطبة الكلام المخطوب به(...) فأمّا المخاطبة فيقال منها خاطبتُ أخاطِبُ مخاطبةُ، والاسم الخطاب(...) والخَطَابة والخِطاب اشتقّا من الخُطَبِ والمُخاطَبَة لأنّهما مسموعان...»[1]، تعمّدنا إيراد هذه الاشتقاقات اللّغوية لما لها من دور في فهم الاسم العام الّذي اتّخذناه لهذه الأنواع وهو المخاطبات ومدى ارتباطها بالشّفوية، كما هو واضح من العبارة الأخيرة.

يحدد ابن وهب شروط الخطيب، وأجزاء الخطبة وخصائصها على نحو ما رأينا عند الجاحظ، من مراعاة أقدار السامعين، ووصف أجزاء الخطبة من تحميد وتمجيد وتوشيح بالقرآن والأمثال والأشعار، مركّزا على الإيجاز والإطناب كلٌّ في موضعه، وفق قاعدة " لكلّ مقام مقال".

و من الوهلة الأولى يبيّن ابن وهب أغراض هذا النّوع ووظائفه، «فالخطب تستعمل في إصلاح ذات البين، وإطفاء نار الحرب، وحمّالة الدّماء، والتّشييد للملك، والتّأكيد للعهد، وفي عقد الإملاك، وفي الدّعاء إلى الله -عزّ وجل- وفي الإشادة بالمناقب، ولكلّ ما أُريد ذكره وشهرته في النّاس»[2]. هذه المواطن أو المقامات الّتي يستعمل فيها هذا النّوع من المخاطبات تسمح بتصنيف معيّن له ينبني على دعامة المناسبة أو المقام فنجد الخطبة السيّاسية والدينيّة، وخطبة النّكاح...، كما يوجّه هذا الكلام نظرنا نحو نصوص كنّا ننظر إليها في انفصال عن المخاطبات كالدّعاء، والإشادة بالمناقب... وغيرها مما يزخر به التّراث العربي في مختلف المصنّفات.

[1]- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان ، ص 152.
[2]- م ن، ص 150.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1-2-المخاطبات في عيون الأخبار:

نجد أنفسنا إزاء تجلي المخاطبات وحضورها بوصفها نصوصا في "عيون الأخبار" ومنه ستكون عملية تعيين انتماءاتها وتسمياتها أوّل خطوة في طريق التّصنيف. إذ يقدّم ابن قتيبة في عمله التّصنيفي هذا بعض المفاتيح الّتي من شأنها أن تساعدنا للتّعرف على هويّة النّص وانتمائه، وهي ممثّلة في: **العناوين، الأسانيد** ، بعض **الشروحات والتعليقات**.

1-2-1-عتبة العنوان وتحديد الانتماء النّوعي:

يمثّل العنوان أهمّية كبيرة في تحديد انتماء أيّ نص إلى جنس أو نوع أدبي ما كما قرر ذلك جيرار جينيت وفصّل فيه في دراسته الشّهيرة "***عتبات***" [1] Seuils.

وعلى الرّغم من أنّ عناوين الكتب العشرة المقسّم إليها "عيون الأخبار" تحيل على تصنيف موضوعاتيّ (thématique) كما أشرنا في التّأطير، إلاّ أنّنا نلفي في العناوين الفرعيّة الّتي يدرجها ابن قتيبة ضمن الأبواب والفصول ما يحيل على تسميات النّوع، حيث نجد في كتاب "**العلم والبيان**" بابا بعنوان "**الخُطب**"، كما نجد في كتاب "**النّساء**" باب بعنوان "**خطب النّكاح**"، وفي هذا العنوان تركيز على الموضوع يؤدّي إلى تفريع نوعي يرتكز على الموضوع، كما نعثر على عناوين فرعيّة تحيل على صاحب الكلام مثل "**خطبة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه**"، أو "**خطبة زياد البتراء**"، أو "**خطبة الحجاج**"...الخ، إلاّ أنّنا نشك أنّها من وضع المصنّف، باعتبارها لم ترد في كل طبعات "عيون الأخبار"، ونرجح أنّها من وضع المحقّق.[2]

وعلى هذا الأساس يصبح المتلقي موجّها لاستقبال كلّ نص يقع تحت هذه العناوين على أنّه خطبة، حتّى وإن خرج عن إطار النّوع، وهنا نتساءل: هل تكفي تسمية المصنّف أو المؤلّف لتعيين نص ما على أنّه يدخل في هذا النّوع أو ذاك؟ أو

[1]- عبد الحق بلعابد، عتبات(جيرار جينيت من النص إلى المناص)،ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر،2008. ص89.

[2]- ينظر: طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر،دط، دت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعبارة أخرى ألا يمكن أن تندرج نصوص أخرى في "عيون الأخبار" لم تسمّ ضمن النّوع نفسه؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه حال معاينة النصوص.

1-2-2- مرابطة السّند وتسمية الشّكل:

إنّ النّصوص الواردة في "عيون الأخبار"، هي أخبار في المستوى الأوّل، وبالتالي فهي مكوّنة بداهة من ***سند ومتن***. تمدّنا الأسانيد عادة بتحديد للشّكل سواء عن طريق إدراج التّسمية المباشرة أو أحد مشتقّاتها (بلغني عن شعيب بن صفوان قال: خطب معاوية فقال:..)[1]، أو بذكر المقام وما يتّصل به (حدثني محمد بن شبابة عن القاسم بن الحكم العرني القاضي، قال حدّثني إسماعيل بن عياش عن أبي محمد القرشي عن رجاء بن حيوة عن ابن مخرمة قال: إني **لتحت منبر** عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالجابية **حين قام في الناس** فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:..)[2].

كما نجد في باب "***الخطب***" من كتاب "***العلم والبيان***" ما يشي بتصوّر ابن قتيبة لهذا النّوع من خلال افتتاحه الباب بقوله: «تتبّعت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدت أوائل أكثرها: الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكّل عليه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له...»، هذا ويواصل الحديث عن الثّوابت الّتي وجدها تتكرّر في خطبه صلى الله عليه وسلم، مستشهدا بمقاطع منها، وهنا دلالة على أنّ ابن قتيبة يرى فيها تحقيقا لأرقى درجات الكلام، وتجلّيا لعناصر البلاغة والفصاحة، وهذا يتلاءم مع موضوعة الكتاب الّذي تندرج ضمنه هذه النّصوص ألا وهو "***كتاب العلم والبيان***"، ومن ثمّ تشكّل معيارا أو نماذج للاحتذاء وهي نظرة تتطابق مع ما رأينا عند كلٍّ من الجاحظ وابن وهب.

1-2-3- المخاطبات باعتبارها خطابا تواصليا:

تتقدّم المخاطبات في التّراث من خلال الآراء المعروضة – وإن اتخذت تسمية الخطبة باعتبارها أبرز هذه الأنواع- هي خطاب تواصلي إبلاغي، وهذا يبرز في

[1]- عيون الأخبار، مج 2، ص628.
[2]- عيون الأخبار، مج 1، ص 96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإلمام بأطراف العملية التّواصلية (المتكلم والسامع والكلام) دون تغليب أحدها على الآخر، يؤطرها عنصر أولاه القدماء عناية خاصة هو المقام أو كما يسميه سعيد يقطين ***"المجلس"***. فمن خلال العناصر: المتكلم والسّامع والكلام والمجلس الّذي يؤطِّر هذه العملية يمكن رصد عدد كبير من النّصوص الواردة في "عيون الأخبار"، وندرجها ضمن المخاطبات، سواء تلك الّتي تحمل تسمية الخطبة أو تسميات أخرى (وصيّة، موعظة، دعاء،...)، أو لا تحمل تسمية في "عيون الأخبار" ولكنها تستجيب لحدود النّوع.

1- **المتكلّم:** إنّ المتكلّم في المخاطبات كما تتجلّى في "عيون الأخبار" معلوم حيث ينسب كل كلام إلى قائله، عبر خاصيّة الإسناد، وهذا يعكس صحّة و صدق النّقل، تأسيًّا بمجال رواية الأحاديث النبوية الشريفة، وهنا لا يغيب علينا أنّ ابن قتيبة من أصحاب الحديث النّبوي وعلمائه كما تشهد مؤلّفاته المتعدّدة في هذا المجال. والمتكلّم هنا من الطّبقة "المثقفة"، أي "الخاصة" الّتي تتحقق فيها شروط البيان في الإبلاغ. وهؤلاء المتكلّمون هم النّبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، والخلفاء والأمراء والعلماء والزّهاد أو بعبارة جامعة "أصحاب البيان"،« وميزة هؤلاء المتكلمين جميعا تكمن في القدرة على التأثير على السامع" البلاغة"، من خلال القدرة على تأليف الكلام وتقديمه في السياق المجلسي بالصورة المناسبة (الثقافة)، واجتماع هاتين الخاصّيتين لدى المتكلّم " البلاغي- الثّقافي" يتيح للمتكلّم الكلام في أي مقام وعلى الوجه الذي يريد»[1]. وهنا نلاحظ أنّ للمتكلّم سلطة توجّه استقبال السّامع، وقد استخلصنا ممّا ورد في "عيون الأخبار" أنّ المتكلّم في المخاطبات يتمتّع بـــأحد هذه السّلطات:

أ- **سلطة عقائدية دينية:** ممثلة في المتكلّمين كما في خطب النّبي صلّى الله عليه وسلم والخلفاء الرّاشدين، ومواعظ صالح بن عبد الجليل والأوزاعيّ وخالد بن صفوان...وغيرهم.

ب- سلطة سياسية: ومثالها ما نجد في خطب معاوية ويزيد بن معاوية والحجاج وزياد وعبد الله بن الزبير...، وهم خلفاء وولاّة.

[1]- سعيد يقطين ،السرد العربي : مفاهيم وتجليات،د ط، رؤية، القاهرة،2006. ص153.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ت- سلطة اجتماعية عرفية: ويتجلّى ذلك بوضوح في الوصايا الّتي تصدر غالبا من الأب أو الأم أو شخص ذي علاقة اجتماعيّة بالموصّى إليه كالمؤدّب والمعلم، ويتجلّى هذا في وصايا النكاح مثلا.

ث- سلطة بيانيّة: تجتمع إضافة إلى السلطة الدينية أو السياسية أو الاجتماعية سلطة البيان والبلاغة، وتطغى أحيانا عليها، مثلما يتّضح عند علي بن أبي طالب أو الحجّاج، وهنا يتحقّق التأثّير والإقناع بامتياز.

هذه السلطات تدعو للنّظر في العلاقة الّتي تحكم المتكلّم بالسّامع باعتبارهما طرفا العملية التواصلية في المخاطبات، وقد ميّز سعيد يقطين نوعين من العلاقة الّتي تحكم المتكلّم بالسّامع وهما:[1]

1- **علاقة فعلية:** فيها يكون المتكلّم هو الفاعل الوحيد الّذي يتكلّف بأداء الفعل الكلامي، بينما السّامع يظلّ مجرّد متلقٍ للفعل يتفاعل ضمنيًّا دون أن يتحوّل بدوره إلى متكلّم، وهذا ما تجسّده الخطب المنبريّة والوصايا الواردة في "عيون الأخبار".

2- **علاقة تفاعليّة:** يكون فيها فعلان كلاميّان لكلّ منهما طبعته الخاصّة الّتي تسهم في إنتاج الكلام، كما نجد في "مقامات الزّهاد عند الخلفاء والملوك" وهو عنوان باب من كتاب "الزهد"، فمخاطبة (محاورة) المنصور والزّاهد تنبني على طلب المنصور وإرادته المعرفة، عن طريق طرح سؤال، وهنا يشترط المتكلّم- المحاور الأمان على حياته لأنّه مدرك للسّلطة الّتي يتمتّع بها محاوره،« قال: يا أمير المؤمنين إن أمّنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها، وإلا احتجزتُ منك واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغل فقال: أنت آمن على نفسك فقُل...»[2]، وبهذا يتمّ العقد الكلامي بين الطّرفين ليدلي المتكلّم بكلّ ما يتعلّق بمقام الحديث للإجابة عن سؤال محاوره، بكل صدق وأمانة، ودون خوف لأنّه استنجز وعدا بالأمان من صاحب السّلطة، هذه الأخيرة الّتي ما تلبث أن تصبح في كفّة الزّاهد عندما يعظ المنصور فيطلب هذا الأخير النّصح والإرشاد للحلّ المناسب.

[1]- سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص 151- 152.
[2]- عيون الأخبار، مج 2، ص707.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2 - السّامع: ينقسم السّامع في المخاطبات إلى قسمين:

أ- **جمهور شعبي (العامّة أو السّوقة)**: وهي ميزة الخطب المنبريّة، ومقامات التّأبين والمواعظ العامة.

ب- **فرد خاص (الخاصّة):** وهم من الملوك وذوي السّلطان كما نجد في مقامات الزّهاد.

تسود العلاقة الفعليّة للمتكلّم في النّوع الأوّل، فالسّامع لا يشارك في إنتاج الكلام إنّما يكون تفاعله ضمنيّا، ويخضع لسلطة المتكلّم من خلال تأثّره بما يقول. وعادة ما يكون هذا الجمهور مختلطا يكثر فيه ذوي الأفهام المحدودة ولهذا وجب على المتكلّم مخاطبتهم على قدر أفهامهم. أمّا في النّوع الثّاني فتسود العلاقة التّفاعلية، فالسّامع-المتكلّم مشارك إيجابي في مقام التّواصل، حيث يدفع عجلة الكلام عن طريق الاستفهام والطلب...

من خلال رصد المخاطبات الّتي يكون السّامع فيها من النّوع الثّاني، الّذي هو خليفة أو أمير أو والٍ أو صاحب سلطان –عادة- نجده يجمع في مجلسه من أهل العلم والبيان والفضل بغية الاستزادة منهم، والانتفاع بحكمتهم، فهذا المنصور – على سبيل التّمثيل- يستدعي الأوزاعيّ طالبا إليه الكلام، مانحا له كل ضمانات القول، وحرية ممارسة سلطته المعرفيّة-الدّينيّة بحضرة الخليفة صاحب السلطة الأولى (السياسيّة) ولنثبت هنا التّأطير الّذي قُدِّم به حديث الأوزاعي.

« ذكره عبد الله بن المبارك عن رجل من أهل الشّام قال: دخلت عليه فقال: ما الّذي بطّأ بك عنّي؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين وما الّذي تريد منّي؟ فقال: الاقتباس منك. قلتُ: انظر ما تقول، فإنّ مكحولا حدّثني عن عطيّة بن بشير أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من بلغه عن الله نصيحة في دينه فهي رحمة من الله سِيقت إليه، فإن قبلها من الله بشكر وإلاّ كانت حجّة من الله عليه، ليزداد إثما وليزداد الله عليه غضبا،ومن بلغه شيء من الحقّ فرضي فله الرّضا، وإن سخط فله السّخط، ومن كرهه فقد كره الله، لأنّ الله هو الحقّ المبين"، فلا تجهلن. قال: وكيف أجهل؟ قال تسمع ولا تعمل بما تسمع. قال الأوزاعي: فَسَلّ عَليّ الرّبيعُ السّيف وقال: تقول لأمير المؤمنين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا! فانتهره المنصور وقال: أمسك. ثمّ كلّمه الأوزاعيّ وكان كلامه أن قال: إنّك قد أصبحت من هذه الخلافة...»[1]

يبدو من خلال النّص أعلاه أنّ للمتكلّم شروطا يفرضها على السّامع وهي الأخذ بالنّصيحة والموعظة وترجمة ما يسمع من أقوال إلى أفعال، فتتوازى هنا سلطة المتكلّم الدينيّة-المعرفيّة مع سلطة السّامع السياسيّة، بل تتفوّق عليها لأنّها مستمدّة من سلطة أعلى مطلقة وهي سلطة الله عز وجل (ومن كرهه فقد كره الله). إنّ في انتهار المنصور الرّبيع موافقة ضمنيّة وفي هذا تأسيس لعقد الكلام والاستماع، لتتمّ بذلك المخاطبة الّتي تنتهي بتخيير المتكلّم سامعه بين الأخذ بالنّصيحة أو تركها:«...هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت، وإن رددتها فنفسك بخست والله الموفّق للخير والمعين عليه. قال بلى نقبلها ونشكر عليها، وبالله نستعين»[2]، وبهذا تختم المخاطبة بتصريح من السّامع بقبوله وإذعانه للنّصيحة وعليه تحقّق عنصرا الإقناع والاقتناع.

3- **الكلام**: تمثّل مقولة الصّيغة الأساس الّذي اعتمدناه للتّفريق بين أشكال وأنواع الكلام، وكانت صيغة القول هي ميزة الحديث الّذي تندرج ضمنه المخاطبات، ولكن هل يمكن فعلا إيجاد صيغة خالصة؟ قد يستحيل ذلك، ولكن يكفي النّظر في الصيغ المهيمنة، فعلى الرّغم من أنّ المخاطبات مؤطّرة بالسّرد العنصر الأساس للإخبار ، بدءا من السّند " حدّثنا فلان" وصولا إلى المتن عندما يقدّم الرّاوي كلامه من على مسافة منه، ولكن بمجرّد أن يفسح المجال للمتكلّم نتحوّل من الأسلوب المباشر إلى الأسلوب غير المباشر، إذ تنتفي المسافة الّتي كانت قائمة ويصبح المتلفّظ حاضرا في الملفوظ، ويلمح هذا من خلال ما يسمّى بالمبهمات، والّتي لا معنى لها إلاّ بإحالتها على مرجعها وهي الضّمائر وأسماء الإشارة والظروف...

إنّ استعراضنا للآراء السّابقة يوقفنا على خاصّية الإقناع الّتي تسم الخطب، باختلاف موضوعاتها ومناسباتها، الّتي تتحقّق بواسطة الحجج الّتي يأتي بها المتكلم أو الخطيب،«ومنها في الخطابة العربيّة تصمين الآيات القرآنيّة والأحاديث وأبيات الشّعر و الأمثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوّتها من مصدرها ومن مصادقة النّاس

[1]- عيون الأخبار، مج 2، ص 711.
[2]- عيون الأخبار،مج2، ص 712.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عليها وتواترها، وتدخّل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه»[1]، وبهذا تغدو الخطبة ملتقى لنصوص أخرى، ممّا يدعم الرّأي القائل بعدم وجود نص خالص، فكلّ نص كما ذهب جيرار جينيت هو جامع نصوص أو جامع أجناس.[2]ففي المخاطبات الحاضرة معنا في "عيون الأخبار" كثيرا ما يلجأ المتكلّم إلى الاستشهاد لتدعيم كلامه، وإذا أردنا أن نصنّف نصوص المخاطبات باعتبار الكلام المستشهد به فإنّنا نجدها تنحصر فيما يلي:

أ- ***الاستشهاد بالقرآن الكريم***: يكثر الاستشهاد به في الخطب الملقاة في المناسبات أو المقامات الدّينيّة كخطب يوم الجمعة، والعيدين، ولنا في خطب المأمون مثال بارز[3].

ب- ***الاستشهاد بالحديث النّبوي الشّريف***: نجد حضورا لأحاديث نبويّة في الخطب على اختلاف موضوعاتها، إلاّ أنّها تكثر في مخاطبا الوعظ والنّصح كما في مقام الأوزاعيّ بين يدي المنصور الّذي مرّ معنا، فقد توسّط بحديث النّبي لتفعيل سلطة التّأثير على سامعه.

ت- ***الاستشهاد بالشّعر***: يبدو الاستشهاد بالشّعر في مخاطبات "عيون الأخبار" ضئلا مقارنة مع القرآن والحديث، والّذي يمكن تعليله بأنّ النصوص الحاضرة في المصنّف كلّها تنتمي تقريبا إلى فترة ما بعد مجيء الإسلام، حيث ضعف تأثير الشّعر في النّفوس بالنّظر لتأثير المقدّس، وحتى في حالة ورود الشّعر فسيكون لتعزيز موقف القرآن والحديث النّبوي كما في استشهاد خالد بن صفوان بأبيات لعديّ بن زيد في مقام وعظه هشام بن عبد الملك وتذكيره[4].

ث- ***الاستشهاد بالأمثال***: المثل كما يقدّم تعريفه الباحث محمد العمري «حجّة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدّمتها ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى

---

[1]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيق لدراسة الخطابة العربيّة الخطابة في القرن الأوّل نموذجا، ط1، دار الثّقافة المغرب، 1986. ص 65.
[2]- جيرار جينيت، مدخل إلى جامع النّص، ص 75.
[3]- عيون الأخبار، مج 2، ص 638-641.
[4]- م ن، مج 2، ص 711.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نهاية مماثلتها»[1]، وعليه تحضر الأمثال –عادة- في سياق معيّن يحيل على سياق وروده لمشابهة بينهما، كما ورد في خطبة زياد البتراء، إذ نجده يورد المثل في صيغة تهديد:«...وأيّم الله لآخذنّ البريء بالسّقيم، والمطيع بالعاصي والمقبل بالمدبر، حتّى تستقيم لي قناتكم، وحتّى يقول القائل:أُنْجُ سعد فقد قُتِلَ سعيد...»[2]، وسيأتي تفصيل الحديث حول المثل وبنيته وأنواعه في المبحث الثالث من هذا الفصل المخصّص للمأثورات.

وخلاصة القول في المخاطبات أنّها شكل يتّسع لاحتواء كل الأحاديث ذات الأطراف الحاضرة (المتكلّم، السّامع، والحديث المتداول بينهما) الّتي يؤطّرها مجلس بمثابة فضاء لإنتاج الكلام وتلقّيه، وتبدو المجالس الحاضرة معنا في "عيون الأخبار" خاصّة، تنتمي أطرافها إلى نخبة العلماء كمتكلّمين، والحكام والأمراء كمستمعين، ولهذا امتاز الحديث المتداول بينهم بسموّ الأسلوب، ورقيّ الموضوعات، وجدّية المقاصد.

[1]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 69.
[2]- م س، مج 1، ص 63.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- المكاتبات:

عرضنا في المبحث السّابق لأنواع تدخل في ***المخاطبات***، والّتي تتقدّم المشافهة سمة ثابتة فيها، وبالمقابل سنجد أنواعا أخرى تتميّز بكتابيّتها، الّتي تسمّى ***بالمكاتبات***.

قد لا تختلف ***المكاتبات*** عن ***المخاطبات*** من حيث بعض السّمات الشّكلية إلاّ أنّها تتميّز عنها بسمة الكتابة، وقد استشعر أسلافنا هذا الفرق، ومنهم ابن وهب الّذي يرى أنّه ليس ثمّة فرق بين الخطبة والرّسالة إلاّ في كون الأولى منطوقة والثّانية مكتوبة[1]، ومن هنا نتساءل ما الجدوى من انتخاب ثنائية الشفوي- الكتابي معيارا لتصنيف الأحاديث؟

إنّ المتأمّل في سيرورة الكلام العربي يلاحظ أنّ ظهور الكتابة، كان له دور في ظهور أنواع نثرية لم تكن موجودة، ولهذا ارتبطت الكتابة بأنواع محددة بادئ الأمر، وهنا لابدّ من التّوضيح أنّ فعل الكتابة الّذي نقصده هو "الإنشاء" أو"التّأليف" في التّصوّر التّراثي، وليس الكتابة بمعنى فعل التّدوين، الّذي يتمثّل في تقييد الشّفوي، والعمل على حفظ الكلام العربي بين دفتي كتاب لإحداث تواصل بين الأجيال، كما أنّ الكتابة أسهمت في ظهور ***أشكال طويلة***، في حين كرّست الشّفوية الأشكال القصيرة الّتي يسهل حفظها وروايتها كما رأينا مع الجاحظ.

وإذ نورد اسم المكاتبات على وزن مُفَاعَلَة الّتي هي صيغة من صيغ المشاركة للدّلالة على كلّ النّصوص الكتابيّة الأصل الّتي أنشئت بغرض التّواصل بين طرفين، وعليه تدخل فيها المراسلات والمواثيق والعهود والتآليف...الّتي بدأت تتّضح معالمها مع ظهور المؤسّسة الّتي تحتضنها ألا وهي الدّواوين السّلطانية، وقد احتفى أسلافنا

[1]- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 152.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالتّأصيل للكتابة وتحديد شروطها وتصنيف أشكالها ، وهذا ما تبيناه من خلال ما اطلعنا عليه من الآثار التّالية.

2-1-وجهات نظر في المكاتبات

2-1-1-ابن قتيبة وثقافة الكاتب:

يعتبر ابن قتيبة من أوائل من اهتمّوا بالمكاتبات، ولهذا نراه يضع مؤلّفا خاصًّا بالكتابة والكتاب، ألا وهو " ***أدب الكاتب***"، الّذي حاول من خلاله صياغة الشّروط الثّقافية-المعرفيّة والعناصر البيانية-البلاغيّة الّتي يجب أن تتوفّر في الكاتب، على نحو ما رأينا عند الجاحظ في صياغة شروط الخطيب أو المتكلّم الجيّد، إلاّ أنّ ما يميّز عمل ابن قتيبة أنّه يقدّم هذا الزّاد المعرفيّ بصورة مباشرة من خلال كتبه الأربعة: ***كتاب المعرفة، كتاب تقويم اليد، كتاب تقويم اللسان، كتاب الأبنية***. ولكن قبل تقديمه هذا الزّاد يصدّر عمله بمقدّمة يصوغ فيها مبادئ الكتابة وآداب ممارستها.

إنّ ثقافة الكاتب هذه الّتي يحرص عليها ابن قتيبة لا تتمّ بتحصيل المعرفة فقط، بل لابد من توفّر عنصر "*التّأدب*"، وهو شرط يضيفه المؤلّف ويركّز عليه منذ البداية: «..ونحن نستحبُّ لمن قَبِل عنَّا وءاتمَّ بكتبنا أن يؤدّب نفسه قبل أن يؤدّب لسانه، ويهذّب أخلاقه قبل أن يهذّب ألفاظه، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب- قبل مجانبته اللّحن وخطل القول- شنيع الكلام ورفث المزح»[1] .

وباعتبار ***المكاتبة*** تقع بين طرفين: ***الكاتب*** و***المكتوب إليه***، فلابد من مراعاة مقام التّواصل، ولهذا استحب ابن قتيبة للكاتب أن «ينزل ألفاظه في كتبه ويجعلها على قدر

[1]- ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق: محمد الدالي، دط، مؤسسة الرسالة، بيروت،دت. ص 14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكاتب والمكتوب إليه، وألاّ يعطي خسيس النّاس رفيع الكلام، ولا رفيع النّاس خسيس الكلام»[1].

كما يشير ابن قتيبة إلى تقسيم صيغ الكلام من خلال كلام لأبرويز: « وقال أبرويز في تنزيل الكلام: "إنّما الكلام أربعة، سؤالك الشّيء، وسؤالك عن الشّيء، وأمرك بالشّيء وخبرك عن الشّيء، فهذه دعائم المقالات إن التُمس إليها خامس لم يوجد وإن نقص منها رابع لم تتم، فإذا طلبت فأسجح، وإذا سألت فأوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقّق"»[2].

نستشفّ من هذا الكلام أن هذه ***الصّيغ*** الأربع للكلام هي الّتي توضّح أقسام الكلام، فالصّيغ الثّلاث الأولى(الطلب، الاستفهام والأمر)، تدخل في الصّيغ الإنشائية بالمفهوم البلاغي، وهي الصّيغ الغالبة على كل أنواع الحديث الشفويّة منها والمكتوبة، أمّا الصيّغة الرّابعة فهي الخبر الّذي يحتمل الصّدق والكذب. ويتّضح إذن احتمال استيعاب المكاتبات شتّى صيغ الكلام العربي، ومنه استبعاد تحديد نوع معيّن بصيغة وحيدة.

نستنتج أنّ فهم ابن قتيبة واستيعابه للمكاتبات من خلال مقدّمة "أدب الكاتب" جاء في إطار فهمه للكلام العربي(بمفهومه الموسّع) وأقسامه وصيغه، ولهذا لم نجد لديه تصنيفا لأنواع المكاتبات، أو وصفا لأجزائها ولكن ما قدّمه من شروط ومعايير لها أهميّة ستظهر فيما بعد عند بعض المتأخرين ونقصد منهم القلقشندي في صياغة مفاهيم وآراء هامّة حول المكاتبات وأنواعها.

2-1-2-أبو القاسم الكلاعي وضروب المكاتبات:

من المؤلفات الّتي تناولت النّثر واحتفت بضروب المكاتبات ما قدّمه ***أبو القاسم الكلاعي*** في مؤلفه " ***إحكام صنعة الكلام*** " يتناول المنثور باعتباره قسما من الكلام الّذي يشمل المنظوم والمنثور، وتفضيل الثّاني على الأوّل، محتفيا بصناعة الكتابة باعتبارها صناعة شريفة يجب على من يمارسها أن يحترم أدبيّاتها« فالواجب على من

[1]- م ن، ص 18.
[2]- ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص19.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أتاه الله هذه الفضيلة، وبوّأه هذه الدّرجة الرّفيعة، وعلّمه فصول الخطابة، وفقّهه في ضروب الكتابة أن يطهّرها من دنس القبائح. فيخزن لسانه عن الغيبة، ويخلع نعل الدّناءة، ويمتطي صهوة العافية، ويكون بعيد الهمّة، نزيه النّفس...»[1]،وهنا نلاحظ التّقاطع مع شروط ابن قتيبة المحدّدة آنفا.

بعد تحديده لآداب الكتابة ينتقل إلى التّصنيف فيحدّد ثلاثة أنماط للمنثور، وهي ما يسمّيها بـــ"أقسام الخطاب" مستندا في ذلك إلى مقولة الإيجاز البلاغية، يقول: «الخطاب يقسَّم إلى ثلاثة أقسام: منه ما رفل ثوب لفظه على جسد معناه، وهذا هو الإسهاب، ومنه ما ثوب لفظه كثوب المؤمن، وهذا هو الإيجاز، ومنه ما خيط ثوب لفظه على جسد معناه، وهذا هو المساواة، ولكل قسم من هذه الأقسام موطن يصلح فيه، ومقام يختص به»[2] ، من هذا الكلام تتحدّد الرؤية البلاغية واعتماد الإيجاز معيارا كيفيّا-كميّا للفصل والمفاضلة بين أقسام الكلام العربي وهو ما أشرنا إليه في التّأطير،هذه الأنماط الّتي حدّدها الكلاعي قد توجد في أيّ نوع من أنواع الكلام بغضّ النّظر عن شكله أو جنسه، ثمّ ينزل درجة ثانية في التّقسيم والتّصنيف، يقول: « وجعلت أبحث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: التّرسيل ومنها التّوقيع ومنها الخطبة، ومنها الحكم المرتجلة والأمثال المرسلة، ومنها المورّى والمعمّى، ومنها المقامات والحكايات، ومنها التّوثيق والتّأليف»[3] ، هنا نلاحظ تعدّد اعتبارات التّقسيم فكل من المورّى والمعمّى يعدّان نمطين بلاغيين على شاكلة الموجز والمسهب، و عليه لا يقعان في مرتبة واحدة مع التّرسيل والخطب والأمثال الخ، كما نلاحظ في الأبواب الأخرى من الكتاب اهتمامه بالتّرسيل من حيث إلمامه بكل متعلقاته، مادية(كشكل الصحائف وألوانها، والخط وجماله) وبنائية(أجزاء الرسالة، العنوان، الاستفتاح، الصلاة على النبي...)، كما نجده يتأمل في أنواع الرّسائل ويصنّفها "***مخترعا***" لها-كما يقول- ألقابا، مستمدّة من سمة البديع المهيمنة عليها فيجعلها: ***العاطل والحالي والمصنوع والمرصّع والمغصّن والمفصّل والمبتدع***، ويخصص لكل نوع بابا يعرف فيه بالنوع ويصفه

[1]- الكلاعي، أبو القاسم بن عبد الغفور، إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية، دط، دار الثقافة، بيروت، 1966. ص 40.
[2]- الكلاعي أبو القاسم بن عبد الغفور، إحكام صنعة الكلام ، ص 89.
[3]- م ن، ص 95.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويذكر أهم من اشتهر بالكتابة فيه مستشهدا بمقاطع من كلامه في ما يلي نورد نكتفي بتقديم مفاهيم هذه المصطلحات كما قدّمها.

- ***العاطل***:«وإنّما سمّينا هذا النّوع: العاطل لقلّة تحليته بالأسجاع والفواصل وهذا النّوع هو الأصل والتّجمّل بكثرة السّجع فرع طارئ عليه». (ص 96)

- ***الحالّي***:« وإنّما سمّينا هذا النّوع الحالّي لأنّه حُلّي بحسن العبارة، ولطف الإشارة وبدائع التّمثيل والاستعارة، وجاء فيه من الأسجاع والفواصل ما لم يأت في باب العاطل». (ص 97-98)

- ***المصنوع***: «وسمّينا هذا النّوع المصنوع لأنّه نمّق بالتّصنيع، ووُشّح بأنواع البديع وحلّي بكثرة الفواصل والأسجاع، واستجلب منها ما يلذّ في القلوب ويحسن في الأسماع». (ص 114-115)

- ***المرصّع***: «وسمّينا هذا النّوع المرصّع لأنّه رُصّع بالأخبار والأمثال والأشعار، وروايات القرآن وأحاديث النّبي عليه السّلام، إلى غير ذلك من النّحو والعروض، وحلّ أبيات القريض». (ص130)

- ***المغصّن***:« وسمّينا هذا النّوع المغصّن، لأنّه ذو فروع وأغصان وقلّما يستعمله إلاّ المحدثون من أهل عصرنا وهو نحو قولي (وقد يكون من النّعم والإحسان ما يصدر من الفم واللّسان، ومن النعماء والمعروف ما يسر بالأسماء والحروف). فقابلت سجعتين بسجعتين، كلّ سجعة موافقة لصاحبتها». (ص141)

- ***المفصّل***: «وسمّينا هذا النّوع من البيان المفصّل، لأنّه فصّل فيه المنظوم بالمنثور، فجاء كالوشاح المفصّل». (ص 144)

- ***المبتدع:*** « وللبدائع-أعزّك الله- بعض التّعلق بفصل المفصّل المذكور لامتزاج المنظوم فيها بالمنثور(...) وصنعة البدائع –أعزّك الله- غريبة الموضوع، عجيبة المسموع، تقع فيها كلمات تقرأ من جهتين وثلاث، وربّما قرئت من أربع جهات». (ص 160)

نخرج من خلال هذا التّصنيف بالملاحظات التّالية:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- إعطاء الرّسالة –من بين أنواع المكاتبات- الاهتمام الأكبر من خلال بسط الكلام في وصفها والبحث في أنواعها وأصنافها؛

- انتخاب البديع معيارا للتّصنيف بحكم هيمنته في تجلّيات الرّسالة الّتي تعامل معها الكلاعي؛

- وعي الكلاعي بحدود الأنواع وتراتبيّتها، فقد جعل العاطل الخالي من ألوان البديع (الأكثر بساطة) أصلا، وغيره فرعا له؛

- في النّوع الأخير إشارة هامّة إلى اعتماد مفهوم الكتابة معيارا ثابتا للتّصنيف في التّراث، حيث يتجاوز ثنائيّة الشفوي/المنطوق بمفهومها التّقليدي، إلى اعتبارها ممارسة تواصليّة تغيب فيها ذات الكاتب جسدا وصوتا لتحضر من خلال الأثر، وهي مقولة أساسيّة لنظريّة التّفكيك الحديثة.

كما يعقد الكلاعي فصلين آخرين أحدهما للتّوثيق وآخر للـتّأليف باعتبارهما نوعين من أنواع المكاتبات، باسطا فيهما شواهد كثيرة.

خلاصة القول في رؤية الكلاعي "البلاغيّة" للمكاتبات أنّه قدّم نظرة شموليّة للنّثر باعتباره أحد قسمي الكلام العربي(المنظوم والمنثور) وحاول التّمييز بين أقسامه وأنواعه ملتفتا إلى ضروب المكاتبات المتنوّعة مع إيلائه المراسلات الاهتمام الأكبر من حيث الوصف والتّصنيف، كما لفت انتباهنا عدم تقيّده بما هو موجود من تقسيمات وتسميات ، بل راح يضع تقسيمات أخرى وتصنيفات مختلفة مما يعكس مرة بعد مرة وعي أسلافنا بقضية الأجناس في الكلام العربي وأهميّة تصنيفه.

2-1-3-القلقشندي وصناعة الإنشاء:

نجد من المتأخّرين، ممن اكتملت عندهم النّظرة للكتابة واتّضحت معالمها ***القلقشندي*** في مؤلفه الموسوعي الضخم "***صبح الأعشى في صناعة الإنشا***"، إذ يزخر هذا المؤلف بكل ما له علاقة بالكلام العربي، سواء من حيث النّصوص الكثيرة والمتنوعة الّتي يوردها، أم من حيث الآراء النّقدية، ومعارف على اختلاف علومها (تاريخية ، جغرافية، سياسية...)، ممّا تصحّ معه تسمية "الموسوعة". وعلى الرّغم من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحيّز الزّمني الّذي يفصل ابن قتيبة عن القلقشندي، إلاّ أنّنا نورده هنا لسببين: أوّلهما أنّ القلقشندي انطلق من المبادئ الّتي جاء بها ابن قتيبة في "أدب الكاتب" والّتي كانت بمثابة اللّبنات الّتي بنى عليها القلقشندي موسوعته الضّخمة، وثانيهما أنّ التّجليات تسبق المفاهيم كما ذهب سعيد يقطين[1]، ولهذا ستبدو نظرة القلقشندي مكتملة بالنّسبة للمكاتبات، الّتي بدأت ملامحها قبيل عصر ابن قتيبة.

يقوم القلقشندي في موسوعته بإبراز أهمية الكتابة الّتي يرى أنّها:« من أشرف الصنائع وأرفعها وأربح البضائع وأنفعها وأفضل المآثر وأعلاها، كيف لا وقد حث الشّارع عليها»[2]، ناهيك عن المرتبة "السياسية" الّتي أصبح الكاتب يتبوّؤها في جهاز الدّولة، والدّور الّذي تلعبه في حفظ الكلام وإثباته، فقد انتهت مرحلة الشّفوية، وحلّت محل المخاطبات المكاتبات « وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب»[3]، وعليه حل نوع مكان نوع آخر لاعتبارات ثقافية فرضتها التغيّرات الزمنية.

يهتمّ القلقشندي على غرار ما وجدنا عند ابن قتيبة و الكلاعي، بتحديد شروط الكاتب وآدابه، وقد توسّع في ذلك وفصّل فيه، ونستخلص من كلام القلقشندي أنّ المشتغلين بهذه الصّنعة اختلفت مقاصدهم في التّصنيف وتباينت مواردهم في الجمع والتّأليف، وعليه فهو يوزّعهم على ثلاث فئات:[4]

1- فئة تؤسّس وتنظّر لأصول الكتابة (ففرقة أخذت في بيان أصول الصّنعة وذكر شواهدها)

2- فئة اشتغلت بالمصطلحات ومعانيها (وأخرى جَنَحَت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها)

3- فئة اشتغلت بجمع الرّسائل (وطائفة اهتمت بتدوين الرّسائل ليقتبس منها معانيها ويتمسّك بأذيالها، وتكون أنموذجا لمن بعدهم)

---

[1]- يراجع: سعيد يقطين، السّرد العربي مفاهيم وتجليات، ص 65.
[2]- القلقشندي أبو العبّاس أحمد، مج1، دط، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1922.صص
[3]- م ن، ص210.
[4]- م ن، ص 07.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد جمع القلقشندي بوصفه "كاتبا" بين عمل الفئات الثّلاث في موسوعته هذه، فبعد أن بيّن أصول الكتابة، نجده يعرّف بمصطلحاتها كلّما عرض لواحد منها، ثمّ ما يلبث يورد نصوصا عديدة كشاهد على ما قاله.

كما نجده يُحِلّ مفهوم "الكتابة" محل مفهوم "النثر"، وأنّ هذه الكتابة هي ما يسمّيه "صناعة الإنشاء"،«إلاّ أنّ العرف فيما تقدّم من الزّمان قد خص لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء حتّى كانت الكتابة إذا أُطلقت لا يراد بها غير كتابة الإنشاء والكاتب إذا أُطلق لا يُراد به غير كاتبها حتّى سمّى العسكريّ كتابه "الصّناعتين: الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء، وسمّى ابن الأثير كتابه " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء، إذ هما موضوعان لما يتعلّق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها»[1]، وهنا يتبين أن القلقشندي يعنى بالإنشاء على أنه صناعة أو فن مستقل بذاته، وما النحو والبلاغة إلا علوم متعلقة بها.

وعلى الرّغم من اهتمامه الكبير بالمكاتبات السّياسية الّتي تقع بين الأمراء والولّاة، وتتناول شؤون الدّولة، وهو ما يعكسه عدد الصّفحات المخصّصة لذلك[2]، إلاّ أنّنا نجده في المقالة العاشرة[3] يتناول ضروب الكتابة الّتي يتداولها الكتاب خارج نطاق الدّواوين السّلطانية، ويصنّفها في خانتين هما: "*الجديات*"و "*الهزليات*"، متجاهلا الحديث عن الثانية، أمّا الأولى فيعدّدها كما يلي : المقامة، الرّسائل، قدمات البندق(ما يقال عند الرّماية في الصّيد)، الصّدقات(خطب الصّداق)، ما يكتب للعلماء وأهل الأدب (الإجازة والتّقريض)، العمرات الّتي تكتب للحاج.

نستنتج من قراءتنا الأوّليّة لمنجز القلقشندي أنّه حاول أن يخلّص الكتابة مما قد يعلق بها أو يتداخل معها من العلوم الأخرى، وأنّه اجتهد في وصف وتصنيف المكاتبات بالصورة الّتي انتهت إليها في عصره، والّتي نلخصها بدورنا كما يلي:

أ- ***المكاتبات الرّسمية:*** وهي كل المكاتبات الّتي تتعلّق بالسّلطان من أنواع التّرسل والمواثيق والعهود وكتابة الأموال الخ

[1]- القلقشندي، صبح الأعشى، مج1، ص 52.
[2]- يراجع المقالة الرابعة من صبح الأعشى التي تقع في المجلدات 6-7-8-9.
[3]- يراجع :م ن مج 14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ب- ***المكاتبات غير الرّسمية:*** وهي الّتي تتعلّق بثقافة الكاتب، أو لنقل تلك الّتي يمارسها الكاتب خارج نطاق مهنته الرسمية، وهذه هي الّتي تؤسّس للأشكال الأدبية، وهي تشمل الجدّيات والهزليات.

كما نستنتج من إهماله الحديث عن الهزليات نظرته الجديّة الصّارمة الّتي تتحكّم فيها شروط وآداب ممارسة الكتابة، الّتي تدعمها الخلفيّة الدينّية والأخلاقيّة، حيث لا مجال لخطل القول والرفث في المزاح، فأحسن الكلام أجوده وأجوده أصدقه وقيمته تكمن في مدى تحقيقه للمقصد الأخلاقي.

وهكذا بعد أن استوفينا من مجموع هذه القراءات نظرة التّراثيين للمكاتبات سنحاول رصد تجلّياتها في المدوّنة المُشتغَل عليها، لنرى مدى توافق أو تنافر المفاهيم و التّجليات وخاصّة أنّنا سنقف هنا بين ابن قتيبة ***المنظّر*** في "أدب الكاتب" وابن قتيبة ***المصنّف*** في "عيون الأخبار".

2-2-المكاتبات في عيون الأخبار:

تتحدّد ***المكاتبات*** في "***عيون الأخبار***" من خلال الأسانيد حيث تحيل على مصدر وطريقة رواية هذه النّصوص، ومنه تحدّد ***المرجع***، وكذلك من خلال الأوصاف والتّسميات الّتي تضفيها على الكلام.

تتعدّد مصادر وطرق ابن قتيبة في استقاء مادته، فبعضها مصدره السّماع والأخذ أو الرّواية أو المشاهدة (مصدر شفوي)، وبعضها القراءة والكتب(مصدر كتابي)، وهنا نستنتج سعة الاطّلاع الّتي يتميّز بها ابن قتيبة من جهة، وأمانته في النّقل عن طريق الإحالة من جهة ثانية.

تفتح صيغ الأداء -كما حددنا في موضع سابق من البحث- أمامنا الباب للتّعرف على انتماء الكلام إلى هذا النّوع أو ذاك، وهنا تتحدّد صيغة الفعلين "***قرأ***" و"***كتب***" ومشتقّاتهما لدخول الكلام ضمن المكاتبات، حيث يورد ابن قتيبة عبارة (قرأتُ في كتاب كذا) أو (جاء في كتاب فلان)، وهنا يصرّح بتلقّيه المباشر للنّص عن طريق القراءة، بينما نجد في صيغة (كتب فلان إلى فلان) عدم التّصريح بطريقته في التّلقي، ومهما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت طريقة التّلقي المتّبعة، فإنّ الممعن في المكاتبات الواردة في "***عيون الأخبار***"، سيميز بين نوعين هما: ***المؤلّفات والمراسلات.***

2-2-1-المؤلّفات: أو التّأليف بالمعنى الّذي أشار إليه الكلاعي، إذ كانت تؤلّف كتب يطلق عليها اسم الرّسائل، وهي أحاديث أدبيّة أو دينيّة أو تاريخيّة أو علميّة، كرسائل ابن المقفع "***الأدب الكبير***" و"***الأدب الصغير***"و"***رسالة الصّحابة***" وكذا رسائل الجاحظ الكثيرة، وهنا سيُلاحظ أنّ هذه الرّسائل من الطّول بحيث تخرج عن حدود هذا البحث المخصّص للأشكال القصيرة، ونوضّح هنا أنّ ابن قتيبة إذ يورد هذا النّوع من المكاتبات فإنه "يقتطف" أو "يقتطع" "فقرات" "مستحسنة" أو "بليغة" تخدم غرض الباب الّذي يكون بصدد وضعه، وعليه فيمكن أن نسمّيها بالمقتطفات ونلحق بها صفة مختارة أو بليغة أو مستحسنة، لتندرج ضمن الأشكال القصيرة، ونشير إلى أنّ هذا النّوع قد يبدو غريبا أو قاصرا ولا يجوز اعتباره نوعا مستقلاً مادام جزءا مقتطعا من كلّ، ولكن ما وجدنا من اهتمام القدماء بهذا النّوع في شتّى المصنّفات على اختلافها في التّسمية (النّتف، المقطّعات، الكلمات، الألفاظ...) هو ما جعلنا نلتفت إليه ونوليه اهتماما ومادام يشترك مع أنواع أخرى فإنّه يمكن أن ينتسب إليها.

نعتقد أنّ الخاصيّة البلاغية والجمالية لهذه المقتطفات تمنحها حقّ الانتماء إلى أقسام الكلام، وكذا الوظيفة التّأليفيّة الّتي تؤدّيها في عمليات التّأليف حيث سيكون هذا الشّتات من أنماط الكلام نسيجا ملتحم الأجزاء في نصوص أخرى عبر تفاعلها وامتزاجها، و إذا كانت الدّراسات الغربيّة الحديثة تتحدّث عن شكل قصير هو "المقتطف"(le fragment) ، وتدرج تحته نصوصا كما فعل برنار روخوموفسكي الّذي اعتبر خواطر باسكال غير المكتملة مما يدخل في هذا النوع[1]، أفلا يجدر بنا أن نلتفت إلى هذا النّوع ونبحث في صفاته وسماته، حتّى في ظل غياب تصوّر يدخله في منظومة الأنواع كما هو الشأن بالنّسبة للخطبة والرسالة وغيرهما، مادامت تجلياته حاضرة، بل وبغزارة، وهذا في اعتقادنا ما جعل أسلافنا يولون –في كثير من الأحيان-

[1]- Lire les formes brèves , Bernard Roukhomovsky, p 98 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اهتماما للنّمط البلاغي للكلام بغضّ النّظر عن الاعتبارات الأخرى(الاكتمال، التّسمية...)، وهذا ما تجلّى في عرضنا للأنواع الّتي حدّدها الكلاعي للمراسلات.

يورد ابن قتيبة في كتاب السلطان مجموعة لا بأس بها من هذه المقتطفات، مصرّحا بمصدرها في الغالب، وقد ميّزنا من بينها كتاب "***التاج في أخلاق الملوك***" للجاحظ، وكتاب "***يتيمة الدهر***" للثعالبي، وكتب آداب ابن المقفع، ونورد منها المثالين التّاليين من كتاب ***السلطان***:

باب اختيار العمال

وفي التّاج أنّ أبرويز كتب إلى ابنه شيرويه من الحبس:«ليكن من تختاره لولايتك امرأ كان في ضعة فرفعته، أو ذا شرف وجدته مهتظما فاصطنعته، ولا تجعله امرأ أصبته بعقوبة فاتّضع عنها ولا امرأ أطاعك بعدما أذللته، ولا أحدا ممّن يقع في خلدك أن إزالة سلطانك أحبّ له من ثبوته، وإيّاك أن تستعمله ضرعا غمرا كَثُرَ إعجابه بنفسه وقلّت تجاربه في غيره ولا كبيرا مدبرا قد أخذ الدّهر من عقله كما أخذت السّن من جسمه»[1]

باب صحبة السلطان وآدابها وتغيّر السّلطان وتلوّنه

وقرأت في آداب ابن المقفع:« لا تكوننّ صحبتك للسّلطان إلّا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك، فإن كنت حافظا إذا ولّوك، حذرا إذا قرّبوك، أمينا إذا ائتمنوك، تعلّمهم وكأنّك تتعلّم منهم وتؤدّبهم وكأنّك تتأدّب بهم، وتشكر لهم ولا تكلّفهم شكرا، ذليلا إن صرموك، راضيا إن أسخطوك، وإلّا فالبعد منهم كلّ البعد والحذر منهم كلّ الحذر، وإن وجدت عن السّلطان وصحبته غنىً فاستغن به فإنّه من يخدم السّلطان بحقّه يحل بينه وبين لذّة الدّنيا وعمل الآخرة، ومن يخدمه بغير حقّه يحتمل الفضيحة في الدّنيا والآخرة »[2]

[1]- عيون الأخبار، مج 1، ص 58.
[2]- م ن، ص 62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نلاحظ من خلال إسناد المثالين أنّ الكلام مصرّح بمصدره وهو عنوان المؤلَّف المأخوذ عنه، وكما ذكرنا أنّ كلاًّ من الجاحظ وابن المقفع ألّفا عن الملوك وأخلاقهم وسيرهم وآداب صحبتهم، أو بالأحرى وجّها من خلال مؤلّفاتهم رسالة إلى السّلطان، وهذا يعكس ارتباط الكتابة أساسا به، واهتمام الكتاب بإصلاحه لأنّ «صلاح الدّين بصلاح الزّمان، وصلاح الزّمان بصلاح السّلطان، وصلاح السّلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التّبصير»[1] كما صرّح بذلك ابن قتيبة، ولهذا تتّسم كل المقتطفات – تقريبا- في ***عيون الأخبار*** بالتّركيز على ***النّصح والإرشاد***، وعليه يتميّز أسلوبها بالأسلوب ***التّعليمي التّوجيهي*** الّذي تطغى عليه صيغ الطّلب والنّهي والحثّ ...

كما يحضر معنا في نفس الكتاب ***"كتاب السّلطان"*** نوع آخر من المكاتبات وهو المراسلات الدّيوانية.

2-2-2-المراسلات الديوانية: وهي الكتب الّتي يتبادلها الخليفة وعمّاله، وتتناول شؤون الدّولة وأمور السيّاسة، وهي الّتي أفاض القلقشندي في الحديث عنها كما مرّ معنا، وما نجده من تجليّات لها في ***"عيون الأخبار"*** يمتاز بالاختصار، وتهيمن عليه وظيفة الإبلاغ، وتتجلّى من خلاله سمة الإيجاز البلاغي.

يطالعنا ابن قتيبة في كتاب ***العلم والبيان*** بفصل يحمل عنوان ***"مقطعات من ألفاظ تقع في الكتاب والكلام"***[2]، والتّسمية تشي بوعي ابن قتيبة بالنّوع الّذي يقدّمه، ومن جانب آخر هذا إعلان عن عملية الاجتزاء أو الاقتطاف الّتي قام بها. كما أنّ وقوع هذا الفصل في كتاب ***العلم والبيان***، له دلالته، إذ تتّأكد خاصّيّة البلاغة والبيان في هذه المقتطفات وهو ما يمنحها كيانها الخاص، وأنّه بالرّغم من أنّها كُتِبت في مناسبة ما أو سياق معين ، إلاّ أنّها قابلة للتّوظيف في سياق آخر، فتصبح بمثابة "مسكوكات" أو عبارات "جاهزة" يؤتى بها للاحتجاج أو التّمثيل الخ في مقام معيّن، وتوشّح بها الكتب والمؤلّفات. ***"الألفاظ"*** أو ***"المقتطفات"*** الّتي اختارها ابن قتيبة في هذا الباب تمثّل صيغ شكر وامتنان ودعاء للسّلطان والإخوان...، ولنقدم شاهدين على سبيل التّوضيح:

[1]- عيون الأخبار، مج1، ص 38.
[2]- م ن، مج 2، ص 612.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أ.«أبدأ بذكر يدك الّتي أجارتني على صرف الزّمان ووقتني نوائب الأيّام وثمرت لي بقيّة النّعمة، وصانت وجهي عن استعباد منن الرّجال، وبسطت لي الأمل في بلوغ ماله بك من رفعت خسيسته ونوّهتَ بذكره، وأعانتني على اتّباع مذهب الماضين من سلفي الوفاء لكم، وحماية النّعمة عليكم بكم عن أيدي غيركم، حتّى خلصت لهم منكم فعزّوا، ولم يشغلوا شكرهم بغيركم حين شكروا، ولم يحتملوا صنيعة لسواكم لمّا اعتدوا ولم تتشعّبهم الدّنيا إذا اضطروا»[1]

ب.«لا أزال -أبقاك الله- أسأل الكتاب إليك في الحاجة، فأتوقّف أحيانا توقّف المبقي عليك من المؤونة، وأكتب أحيانا كتاب الرّاجع منك إلى الثّقة والمعتمد منك على المقة، لا أعدمنا الله دوام عزّك، ولا سلب الدّنيا بهجتها بك ولا أخلانا من الصّنع لله على يدك وفي كنفك، فإنّا لا نعرف إلاّ نعمتك، ولا نجد للحياة طعما وندى إلّا في ظلّك»[2]

يسعى الكاتب من خلال هذه المكاتبة للتّعبير عن مشاعره (الولاء، الإخلاص) تجاه المكتوب إليه، متوسّلا بصيغ الشّكر والامتنان والدّعاء والمدح الخ، وهي استراتيجية مُنتهجة قصد التّأثير على المتلقّي واستمالته لتحقيق أغراض معينة كالحظوة والتّقرب من السّلطان، أو اتقاء شرّه أو غيرها.

كما نلفي ابن قتيبة يصرّح بنسبة مجموعة من هذه المقتطفات إليه حيث يقول: «وكتبت إلى محمد بن عبد الله بن طاهر» وهذا دليل على أنّ ابن قتيبة لم يتوقّف عمله في هذا المصنّف على الجمع والاختيار والتّصنيف، وإنّما تجاوزه في كثير من الأحيان عن طريق التّصريح أو التّلميح إلى التّأليف والإبداع. كما تشي هذه المقتطفات المُقدّمة دون سند أو إحالة بنوعين من المراسلات: المراسلات الدّيوانية أو السّلطانية، والمراسلات الإخوانيّة، وتتجلّى نماذج هذه الأخيرة في مقتطفات أوردها ابن قتيبة في كتاب "الإخوان"[3] وقد تقدمت في أسلوب ذاتي معبّر عن المشاعر المختلفة باختلاف المناسبات، منها التعزية، والتهنئة، والعتاب، والاعتذار...

[1]- عيون الأخبار، مج 2، ص 614.
[2]- م ن، ص ن.
[3]- عيون الأخبار،يراجع كتاب الإخوان، مجلد3.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يحضر نوع آخر من المكاتبات في "***عيون الأخبار***"، في شكل مقتطفات دائما، وهو ما سمّاه الكلاعي بالتّوثيق[1]، إذ يعقد ابن قتيبة فصلين تحت عنوان "***ألفاظ تقع في كتب الأمان***" و"***ألفاظ تقع في كتب العهود***"، فيورد نماذج عامّة تصلح للاستعمال في هذا المقام أو ذاك، حيث نجد فيها عبارات لإحالية، كما في هذا المثال:« *من فلان إلى فلان: إنّي أمّنتك على دمك ومالك ومواليك وأتباعك، لك ولهم ذمّة الله الموفّى بها عهده المسكون إليه، ثمّ ذمّة الأنبياء الّذين أرسلهم برسالته وأكرمهم بوحيه ثمّ ذمم النّجباء من خلائقه: بحقن دمك ومن دخل اسمه معك في هذا الكتاب، وسلامة مالك وأموالهم وكذا وكذا، فاقبلوا معروضه واسكنوا إلى أمانه، وتعلّقوا بحبل ذمّته، فإنّه ليس بعدما وكد من ذلك متوثّق لداخل في أمان إلّا وقد اعتلقتم بأوثق عراه، ولجأتم إلى أحرز كهوفه والسلام*»[2]، نلاحظ أنّ الكلمات المسطّرة مطلقة ولا تحيل على مرجع إلاّ إذا استبدلت، وهذا يؤكّد خاصيّة **النّمذجة** الّتي جاءت فيها هذه المكاتبات، وهي لا تختلف كثيرا عمّا نسمّيه اليوم بـــ"الاستمارة".

خلاصة القول حول المكاتبات أنّها تقع في الخطّ الموازي للمخاطبات، حيث يشتركان في عدّة ثوابت أهمها الصيغة القوليّة، والنّمط البلاغي، والوظيفة التّواصليّة وقد توصّلنا من خلال عرضنا لتصورات القدماء عن المكاتبات إلى وعيهم بالفروق الدّقيقة بين أنواع الكلام العربي، وبالرّغم من عدم المطابقة بين التّصورات أو المفاهيم والتّجليات المقدّمة من خلال "عيون الأخبار"، نظرا للتنوّع الشّديد الّذي يندّ عن الوصف والتّصنيف في كثير من الأحيان، إلاّ أنّها تصورات دقيقة تستحقّ وقفة أطول، ونظرة أشمل لفهم أفضل.

[1]- الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص 210.
[2]- عيون الأخبار، مج 2، ص 619.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- المأثورات:

المأثورات أقوال تتميّز بالإيجاز الشّديد، وهي غير منفصلة عن سياق أو خطاب ما؛ بمعنى أنّها ذات طبيعة استشهادية حجاجيّة –كما مرّ معنا في المخاطبات- وهذا ما جعل النّظر إليها على أنّها **حلل تزّين بها النّصوص، وترصّع بها الأقوال**، ولا تملك بذلك إمكانية الارتقاء إلى الأشكال أو الأنواع الأدبية في كثير من الدّراسات الغربيّة الحديثة حسبما أوردت الباحثة ***بسمة عروس*** في بحثها الموسوم بـــ"التّفاعل في الأجناس الأدبيّة"[1].

لئن كان الحديث عن الأشكال الوجيزة في الأدبيات الغربيّة يكتسي لمحة التّقليل من شأنها وعدم الاعتراف بها بوصفها أنواعا، حيث اعتبرت أشكالا ناقصة، غير مكتملة، تأتي في المرتبة الثّانية بعد الأنواع الأدبية من حيث الأهمية، فإنّ الأمر مختلف في الثّقافة العربية، «حيث توضع جنبا إلى جنب مع الأجناس الكبرى كالخطب والرسائل لأنّها تضاهيها فصاحة وبيانا»[2]، وكذلك الأمر بالنّسبة لما أشرنا إليه في المبحث المنصرم بالنّتف أو المقتطفات أو الفقر البليغة، حيث «تعتبر إنجازات أدبيّة راقية، تستقطب إليها جهود المبدعين وجهابذة الألفاظ ونقاد المعاني ليتدبّروا معانيها أو يبرزوا معارض الاختيار والاستشهاد أو ليتّبعوها ويقلدوها»[3]. هكذا تتبيّن وفقا لهذا الخلفية الّتي تحكّمت في النّظر إلى هذه الأشكال والحكم عليها بالجودة والرّداءة استنادا إلى رؤية بلاغية، حيث يعد **أحسن** الكلام **أبلغه** و**أوجزه**، وفق قاعدة "**خير الكلام ما قل ودل**".

---

[1]- بسمة عروس، التّفاعل في الأجناس الأدبية، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، تونس،2008.
[2]- م ن، ص 366.
[3]- م ن، ص 367.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ إلقاء نظرة على المصنّفات التّراثية المتخصّصة منها والجامعة –وما أكثرها!- يجد مادة ضخمة من "**الأمثال**" و"الحكم" و"**الأقوال**" و "**النتف**" و"**المقتطفات**" و"**البلاغات**"...وغيرها من المصطلحات الّتي تندرج تحت شكل المأثورات، لدليل قاطع على الأهميّة والحظوة الّتي نالتها هذه الأشكال النثرية –بعد طغيان الشعر وهيمنته- بمنح "**الثانوي**" و**الهامشي**" من الموضوعات والأنواع فرصة الظهور في مؤلفات خاصة.[1]

يكفي الرّجوع إلى مصنّفات الأمثال والحكم لتأكيد هذه الأهميّة،إذ يقول أبو هلال العسكري في مؤلفه "***جمهرة الأمثال***": «..ما رأيت حاجة الشّريف إلى شيء من أدب اللّسان بعد سلامته من اللّحن، كحاجته إلى الشّاهد والمثل والشّذرة والكلمة السّائرة...»[2]، ولا يتوقف الأمر على تقويم اللّسان وتوشيح الكلام، بل إنّها ضرورة لا يكتمل أدب الأديب إلاّ بها، إذ يوصف من ترك الإلمام بهذا"العلم" بـــ«منقوص الأدب غير تام الآلة فيه، ولا موفور الحظّ منه»[3].

نجد في كتب البلاغة هي الأخرى احتفاء بهذه الأنواع باعتبارها تجسّد النّموذج البلاغي بامتياز، فهذا ابن وهب يصف الأمثال والحكم بأنّها "أنجح مطلبا وأقرب مذهبا" بعد أن جعلها نوعا أدبيًّا من أنواع النّثر جنبا إلى جنب مع الخطب والرّسائل... الخ، وكذلك الكلاعي الّذي قسّم الكلام إلى أنواع كانت الحكم والأمثال إحداها-كما مرّ معنا قريبا- ويطول بنا الحديث لو أردنا تتبّع كل الآثار الّتي عنيت بهذا الموضوع، ولكن حسبنا تبيّن المكانة الّتي اتّخذتها المأثورات في تصوّر القدماء وكيف تبدو تجلّياته في "عيون الأخبار"، وهي تتّضح مبدئيا في نوعين هما: "الأمثال" و"الحكم".

3 - 1-نحو تحديد المعايير:

ونحن نهم بدراسة المأثورات يحضرنا سؤال مهم: من أين نبدأ؟ أو ما هي الخطوات الّتي ننتهجها لدراسة هذه الأنواع في "عيون الأخبار"؟

---

[1]- ينظر: لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سورية، 2003. ص 20.
[2]- أبو هلال الحسن عبد الله بن سهل العسكري، جمهرة الأمثال، ضبط وتنسيق وشرح: أحمد عبد السلام، ج1،ط1، دار الكتب العلمية،1988،ص 9.
[3]- م ن، ص 10.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يحدد أحد الباحثين الغربيين بعض الخطوات الإجرائية لدراسة هذه الأنواع، وهو ***جاك فونتني***(Fontanille Jacque) الّذي تعرّض لدراسة الأمثال والحكم، عندما كان بصدد محاولة إيجاد سيميائية أدبيّة تتناول كل الخطابات والنّصوص الأدبية مهما كان شكلها أو انتماؤها، فقد خصّص جزءا من عمله الموسوم بـــ"السميائيّة و الأدب"، مبحثا للحديث عن هذه الأنواع الّتي اصطلح عليها بـــ"الجنس الصّيغي" le genre formulaire ، ونلخّص تلك الخطوات الّتي اقترحها:[1]

1- نقوم بالتّعريف بمعايير عامة وثابتة؛

2- نختار فئة مكوّنة من نصوص كالحكم والأمثال؛

3- نبحث عن مجموع السّمات المشتركة بينها؛

4- نقوم بدراسة عينة تمثيلية.

كما يوضح الباحث أنّ لهذا النّوع مميّزات عامة تبدو بجلاء وهي: إيجازه وانفتاحه وتلفّظه الافتراضي وقيمه الحصريّة.

يقدّم باحث آخر وهو برنارد روخوموفسكي، في مؤلفه المذكور سابقا، فصلا تحت عنوان "الأشكال الحكمية" Les formes sentencieuses دراسة مفصّلة للأمثال والحكم، وما يلحق بهما من أقوال باعتبار الاصطلاحات المتعدّدة الّتي يوردها. ويعرف هذه الأشكال الحكمية بأنّها:«قول عالمي يمكن أن يُثمّن خارج سياق وروده»، أو هو«صياغة تلفّظية لمحتوى حقيقة عامة تستهدف الإنسان»، ومنه فهو يتّصف بثلاث صفات رئيسية: ميله للتّعميم، خاصّيته الاستشهادية (الاقتباسية)، وحقله الموضوعاتي (الإنسان)[2].

تندرج المأثورات الّتي نحن بصدد دراستها في "***عيون الأخبار***" في شكل الحديث، أو تأتي بصيغة القول وليس الإخبار، وهو ما تقدّمه صيغ الأداء الّتي قمنا بحصرها من خلال استقراء ما جاء في المصنَّف، وهي:

1- Fontanille Jacque, Sémiotique et littérature : Essais de méthode, ed Presses universitaires de France, Paris, 1999. p 160 .

2- Bernard Roukhomovsky, Lire les formes brèves, p 59.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1- كان يقال/ قيل/ قالوا

2- قال فلان/ قالت العرب/ قالت العجم

3- حدثني فلان عن فلان قال/وفي الحديث

4- في كتاب للهند/ الإنجيل/ قرأت في كتاب

5- روى فلان عن فلان قال/ يروى في الحديث

يلاحظ من هذه الصيغ ورود كلمة "القول" أو أحد مشتقاتها، وفي حال غيابها تعوّض بكلمة "الحديث" وهما الصّيغتان الأكثر تواترا في "عيون الأخبار"، أمّا في حال ورود كلمة "روى" أو "يروى" – الّتي تدل على الحكي والإخبار- فنجدها إما مقترنة بالفعل "قال" أو بكلمة "الحديث" كما في الصيغة الخامسة (5)، وهذا يؤكّد أنّ صيغ الأداء تساعد في تحديد شكل الكلام (حديث/خبر).

3-2-المأثورات في عيون الأخبار:

يتعلّق الأمر بالإطار الّذي تندرج ضمنه المأثورات بنوعيها: "الأمثال" و"الحكم" كما تتجلّى في "عيون الأخبار"، ومن خلال التّمييز بالنّظر إلى صيغ الأداء دائما، نحاول النّظر في الجهة الّتي تسند إليها مهمة القول أو التّلفظ، حيث وجدنا ثلاث حالات:

1- **مجهولية القائل**: وتتجلّى من خلال الصّيغ التّالية: كان يقال، قال بعضهم، قالوا،قيل...

2- **جماعية القائل**: وتتجلّى في الصيغ: قالت العرب، قالت العجم، كانت الحكماء تقول...

3- **فردية القائل**: وهنا نجد تسمية شخص معين: الرّسول صلى الله عليه وسلم، الأحنف بن قيس، عمر بن الخطاب، برزجمهر، سقراط...

نلاحظ من هذا التّصنيف، ومن المبادئ والآراء المقدّمة أنّ المأثورات تتقدّم في نوعين لها ***الأمثال والحكم*** اللّذين يلتبسان بعضهما ببعض، ويذهب الباحث ***محمّد توفيق***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أبو علي إلى أنّ القدماء أنفسهم لم يفرّقوا بينهما رغم استعمالهم مصطلحين مختلفين[1]، ولهذا سنعرض في لهما في "عيون الأخبار" كلاًّ على حدة.

3-2-1- المثل:

أ - المثل في التّراث: محاولة تحديد

يزخر التّراث العربي بمؤلّفاته المتنوّعة(المعاجم، الفهارس، المصنّفات الموسوعية، المصنفات المتخصّصة، مصادر البلاغة والنّحو...) ، بتحديدات للمثل، وهي وإن اختلفت وتباينت في التّفاصيل إلاّ أنّها تلتقي في ثوابت معيّنة.

يقدّم التّحديد اللّغوي المثل على أنّه بمعنى التّسوية والشّبه، ففي لسان العرب: **«مثل: مِثلٌ؛ كلمة تسوية يقال هذا مِثلُه ومَثَلُهُ، كما يقال شِبهُهُ وشَبَهُهُ بمعنى...»**[2]، ومن هنا تنطلق وتتّفق مجمل التّعريفات الاصطلاحية المقدّمة للمثل على أنّه قول تشبيهي.

فقد عرّفه ***المبرّد*** فيما نقله ***الميداني*** صاحب ***"مجمع الأمثال"*** -وهي أكبر موسوعة عربية متخصصة في الأمثال- بقوله: « قول سائر يشبّه به حال الثّاني بالأوّل والأصل فيه التّشبيه(...) فحقيقة المثل ما جُعِل كالعَلَمِ للتّشبيه بحال الأوّل»[3] ، يرتكز هذا التّعريف على نقطتين هما: قول سائر/ كالعلم للتشبيه، فهما خطوتان في طريق تحديد المثل حيث تتحدّد بهما قاعدتان:

أ- قاعدة التّداول (سائر)

ب- قاعدة النّمذجة (كالعلم)

---

[1]- محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1988. ص 49.
[2]- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دط، دار المعارف، مصر،دت. مادة (مثل)
[3]- الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1988. ص 33.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما نعثر في أحد مصنّفات الأمثال المتأخّرة قليلا ، استقصاءً لتحديدات المثل وأنواعه بشكل ساعدنا كثيرا على فهم هذا النّوع، وهو مصنّف ***" زهر الأكم في الأمثال والحكم" للحسن اليوسي الأندلسي***، والّذي عاش في القرن الحادي عشر للهجرة.

يفرّع في تعريفه المثل دلالة الكلمة حسب الاستعمال وهي:

1- الشّبه: في قولنا هذا مثل هذا؛

2- الصّفة: كما في قوله تعالى:﴿ مَثَلُ الجنّة الّتي وُعِدَ المُتّقُون﴾؛

3- القول السّائر المشبّه مضربه بمورده.[1]

كما يورد اليوسي عدّة تعريفات للمثل منسوبة تارة ومجهولة النّسبة تارة أخرى، وكلّها تصب في الدّلالات الّتي حدّدها، وقد استرعى انتباهنا تعريف أورده ***للمرزوقي***، يحدّد المثل تحديدا جامعا: « وقال المرزوقي: المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلها بذاتها، تتّسم بالقبول وتشتهر بالتّداول، فتنتقل كما وردت فيه إلى كلّ ما يصحّ قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها وعمّا يوجبه الظّاهر إلى أشباهه من المعاني، ولذلك تضرب وإن جهلت أسبابها الّتي خرجت عليها، واستجيز من الحذف ومضارع ضرورات الشّعر فيها ما يستجاز في سائر الكلام»[2].

يمكن استنباط ثوابت المثل من خلال هذا التّعريف، وهي:

1- قول وجيز (جملة من القول مقتضبة)؛

2- مقبول ومتداول (تتّسم بالقبول وتشتهر بالتّداول)؛

3- ثبات البنية التّلفظيّة في مقابل تغيّر المتلفّظين بها؛

4- خاضعة لقوانين الكلام العربي.

تتقاطع هذه المميّزات والخصائص الّتي حدّدها برنار روخوموفسكي للأشكال الحكمية، والّتي يشكّل المثل نوعا فرعيّا لها، وهي:[3]

---

[1]- الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر،جزء 1، ط1، دار الثقافة، المغرب، 1981. صص 19-20.

[2]- الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم،ج1، ص 20.

[3]- Bernard Roukhomovsky , Lire les formes brèves, p 60

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1- الاستقلال النّحوي L'autonomie grammaticale

2- الاستقلال المرجعي L'autonomie référentielle

3- التّلفظ اللاّشخصي L'énonciation transpersonnelle

انطلاقا من هذه الحدود يمكن أن نعاين الأمثال الواردة في مصنف عيون الأخبار.

ب - المثل في عيون الأخبار:

سنقوم بدراسة شقيّ المثل المتمثّلين في السّند والمتن.

صيغ الأداء، العناوين والهوامش:

تضارع كلمة سند من منظور **سعيد يقطين** -كما أشرنا- مصطلح ***التّهانوي*** "**صيغ الأداء**"،« وهذه الصّيغ ذات إيحاءات خاصة ودلالات محدّدة، وهي تستدعي دراسة متأنّية، لأنها تفيدنا كثيرا في تعيين أقسام الكلام وأوصافه»[1]، فإلى أي مدى ستساعدنا في عيون الأخبار على تحديد نوع المثل؟

نلاحظ من خلال تأمّلنا في "عيون الأخبار" أنّ صيغ الأداء لا تحدّد المثل بصورة مباشرة، بمعنى أنّ الحالات الّتي وردت فيها التّسمية "مثل" قليلة وقد حصرناها في الجدول التّالي:

صيغة الأداء(السّند)	***عبارة المثل (المتن)***	***موقعها***
ويقال في مثل	رأي الشّيخ خير من مشهد الغلام	مجلد1/ ص59
ويقال في مثل	برد غداة غرّ عبدا من ضمأ	مجلد1/ ص179
ويقال في مثل	الكدّ قبل المدّ	مجلد1/

[1]- سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص185.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

		ص280
ويقال في المثل	تطأطأ لها تُخطئك	مجلد1/ ص336
ومن أمثال العرب في هذا	لا تكن حلوا فتُسرط، ولا مرًّا فتُلفظ	مجلد1/ ص378
ومن الأمثال المبتذلة	استأذن العقل على الجدّ فقال: إذهب لاحاجة بي إليك	مجلد1/ ص379
ومن أمثال العرب في ذلك	لا وكس ولا شطط	مجلد1/ ص382
ومن أمثال العرب في الوقاح	رمتني بدائها وانسلّت	مجلد2/ ص428
وتقول العرب	هذا أموق من نعامة	مجلد2/ ص487

نلاحظ من خلال عبارات المثل أنّها مختلفة من حيث الصّيغة والموضوع والمقصود ولكنّ صيغ أدائها صرّحت بأنّها تجتمع في شكل واحد ألا وهو المثل.

أمر أخر يساعد على الكشف عن المثل وتحديده في "***عيون الأخبار***" هي العناوين، وفي الدّراسات الحديثة لا يخفى ما للعنوان من أهمّية في تحديد شكلٍ أدبيٍّ ما، كما بيّنا فيما سبق. على الرّغم من أنّ العناوين الّتي وشّح بها ابن قتيبة كتبه العشر لا تشي بالشّكل المتضمّن في الكتاب فهي تتّجه بالدّرجة الأولى نحو الموضوع، إلاّ أنّ العناوين الفرعيّة تقدّم شيئا آخر. حيث نعثر في المجلد الثّاني في كتاب "***الطّبائع والأخلاق المذمومة***" على فصل بعنوان: "**الأمثال المضروبة بالطبائع**"، ويندرج تحته ما يربو عن عشرين قولا، كما يرد عنوان ثانوي "***ما جاء في الكلب من الأمثال***"، حيث يورده ابن قتيبة بعد أن يوضّح كيفيّة جمعه لهذه الأمثال، قائلا:«قعد جماعة من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أصحابنا يعدّون ما جاء في الكلب من الأمثال فحفظت منه...»[1] ، ثمّ لا تقف أهمّية إيراد هذه العناوين في تحديد انتماء هذه الأقوال بل تسمح كذلك بالقياس عليها كل الأقوال الّتي لم تحدّد من قبل المصنّف على أنّها أمثال.

كما تلعب ***الحواشي والهوامش والتّعليقات*** هي الأخرى دورا في تحديد المثل إضافة إلى الدور التّواصلي والتّداولي الّذي تؤدّيه عادة[2]، فعندما لا توفّر الأسانيد والعناوين تحديدا للمثل في "عيون الأخبار"، فإنّ الهوامش –الّتي هي من وضع المحقّق- تحيل على "***مجمع الأمثال***" للميداني وبذلك يتأكّد لنا انتساب القول إلى المثل، والأمر نفسه بالنّسبة للشروح الّتي يُعقِّب بها المصنِّف حول المثل بشرحه مرّة وبذكر مناسبته مرة أخرى، هنا سنبين من خلال مثال، حيث جاء في المجلد الثّاني في كتاب "***الطبائع والأخلاق المذمومة***": «والعرب تقول:" أكذب من سالئة" وهي تكذب مخافة العين على سمنها"» ثم نجد في هامش آخر الصّفحة:" في مجمع الأمثال السّالئة وهي الّتي تسلا السّمن وتطبخه وتعالجه. قال الميداني في مجمع الأمثال: وكذبها أنّها تقول قد ارتجن، قد احترق، والارتجان ألاّ يخلص سمنها".[3]

نلاحظ كيف شرح ابن قتيبة المثل ليتّضح معناه، حتّى يستعمله المتلّقي في مقامه المناسب، ففي هذا الشّرح إذن عملية توجيه لفهم المتلقي. أمّا المحقّق فهو متلقٍّ من نوع خاص، فقد عمل على تقريب صورة المثل أكثر فلجأ إلى أكبر موسوعة للأمثال ووافانا بشرح المثل.

نخلص ممّا سبق إلى أنّ كلاّ من صيغ الأداء والعناوين والهوامش مفاتيح تساعد على تحديد وتعيين المثل من غيره من الأقوال الّتي تلتقي معه في عدّة خصائص باعتبارها أنواعا فرعية للمأثورات، إلا أنّ هذه العتبات لا تكفي لتحديد انتماء الأقوال، وإلا ألغي السّواد الأعظم ممّا ورد في "**عيون الأخبار**" من أمثال، ولهذا سنمر إلى المتن.

صيغة المثل بين بلاغة الاستعارة والإيجاز وصيغ التفضيل:

[1]- عيون الأخبار، مج2، ص482.
[2]- بلعابد عبد الحق، عتبات، ص129.
[3]- عيون الأخبار، مج 2، ص 482.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد حُدّد للمثل إطار بلاغيّ يلخّصه القول الشّهير ***لإبراهيم النّظام***:«يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللّفظ، وإصابة المعنى، وحسن التّشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة»[1].

أمّا الطّبيعة الاستعاريّة للمثل فتكمن في اعتباره قولا نشأ أو قيل في سياق أو حادثة معينة، فيستعار للاستعمال في سياق أو حالات أخرى، تحكمه في ذلك علاقة المشابهة بين السّياقين دائما، كما هو شأن الاستعارة، وقد أكّد اليوسي على هذه الخاصّية للأمثال قائلا: «... وهكذا سائر الأمثال، وهذا يسمّى عند الأدباء استعارة تمثيليّة ويسمّى التّمثيل على سبيل الاستعارة وهي أحد قسميّ الاستعارة التّصريحية الّتي هي أن تشبّه شيئا بشيء، ثم تنقل لفظ المشبّه به وتطلقه على المشبّه لأجل هذا التّشبيه إطلاقا كأنّه وضع له من غير تصريح بالتّشبيه، ولا بالمشبّه به على وجه يشعر بالتّشبيه غير أنّ لفظ المشبّه به قد يكون مفردا كلفظ الأسد الّذي تنقله من السّبع الموضوع هوله أوّلا إلى الرّجل الشّبيه به في الجرأة وقد يكون مركّبا كلفظ "الصّيف ضيّعت اللّبن" الّذي تنقله من هيئة من ضيّع اللّبن إلى هيئة من ضيّع حاجة من الحوائج وهي الاستعارة في التّركيب والتّمثيل على سبيل الاستعارة».[2]

تفسّر الفقرة أعلاه العلاقة بين المثل والاستعارة بشكل جلّي، كما تشير إلى المعنى الأوّلي لكلمة مثل وهو ***الشّبه***، مما يفتح المجال أمام صيغة معيّنة للبروز، وهي الصيغة ***التّمثيلية التّشبيهية*** الّتي عادة ما يطلق عليها اسم ***المثل القياسي***[3] ؛ إذ يتمّ قياس شخص إلى شخص أو صفة بصفة أو غيرها، وتتواتر هذه الصّيغة في القرآن الكريم، كما في قوله عزّ وجل في سورة ***"إبراهيم"***:﴿ **أَلَم ترَ كيفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كلِمَةً طَيِّبَةً كشَجَرَةٍ طيِّبَة أصلُهَا ثَابِتٌ وفَرْعُهَا في السَّمَاءِ**﴾. {الآية 24}

نلاحظ في "عيون الأخبار" أنّ هذا الضّرب يرد أكثر ما يرد في أقوال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كقوله:« مثل الجليس الصّالح مثل الدّاري إن لم يحذك من طيبه علقك من ريحه، ومثل جليس السّوء مثل الكير إن لم يحرقك بشرار ناره علقك من

[1]- الميداني، مجمع الأمثال، ص 34.
[2]- اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج1 ، ص 22.
[3]- يراجع:محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ص 46.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نتنه»[1] أو كما في بعض الحديث المرفوع: «مثل العلماء في الأرض مثل النّجوم في السماء»[2]، وليس الحديث النّبوي وحده من يقتصر على هذه الصّيغة، فثمّة بعض الأقوال الوجيزة الّتي اقتطفها ابن قتيبة من الكتب، وخاصّة أقوال ابن المقفع، كقوله«مثل صاحب السّلطان مثل راكب الأسد يهابه النّاس وهو لمركبه أهيب»[3] ، أو كما في المثال:« قرأتُ في كتاب للهند: إنّما مثل السّلطان في قلّة وفائه للأصحاب وسخاء نفسه عمّن فقد منهم مثل البغيّ والمكتب كلما ذهب واحد جاء آخر»[4] .

نلاحظ في هذه الأمثلة تحقيق شرط ***التّمثيل والتّشبيه*** في صيغة المثل ذاتها، مع انتفاء شرط مجهوليّة القائل الّذي يتحقّق عادة بالسّيران والتّداول، فأصحاب هذه الأقوال معروفون، فهل نخرجها من دائرة المثل؟ لا يمكن إخراجها من النّوع لأنّها تشكّل نوعا فرعيا، وهو الّذي أشرنا إليه بالمثل القياسي الّذي يبنى على قياس شيء بشيء بغضّ النّظر عن قائله، لأنّنا بصدد معاينة المتن أو عبارة المثل لا إسناده من جهة، ولأنّه لا يتصوّر أن أي قول حتى وإن بدا مجهول المؤلّف فهو بالنّهاية صدر عن شخص ما من جهة أخرى. كما نلاحظ المحتوى الحِكَمي لهذه الأمثال والّذي يجعلنا نميّز في "**عيون الأخبار**" الأمثال القياسيّة بأنّها صادرة عن شخص معروف (وجيه) تأتي في صيغة التّمثيل والتّشبيه غرضه أو الغاية منه ترسيخ قيمة إنسانيّة ، وهذا ما يجعله يتماسّ مع الحكمة في ثابت من ثوابتها وهو المحتوى الحكمي.

أما عن الصيغة المتواترة لعبارات الأمثال فهي صيغة (**أَفْعَلُ مِن**) ولنوضّح بعينة من الأمثال الواردة في المصنف:

- أهدى من قطاة أو حمامة.
- أسرق من زنّابة (وهي فأرة برية)
- ألحّ من الخنفساء
- أخدع من ضب

---

[1]- عيون الأخبار، مج1، ص 353.
1- م ن، مج2، ص 519.
[3]- م ن، مج 1، ص 63.
[4]- م ن، مج 1، ص 67.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- أجوع من كلبة حومل

يمكن أن نخرج بالملاحظات التّالية:

- افتتاح المثل بصيغة (أفْعَلُ مِن) للدّلالة على المبالغة والزيادة، وهنا ينتفي معنى التّسوية الّذي وجدناه في التّحديد اللّغوي والاشتقاقي للمثل.

- تتّصل هذه الأمثال بطبائع بعض الحيوانات الّتي عرفتها البيئة العربيّة، ولهذا لا يستغرب أن يورد ابن قتيبة جلّ هذه الأمثال الّتي على هذه الصّيغة ضمن كتاب "الأخلاق والطبائع المذمومة".

- تتّجه مقاصد هذه الأمثال وغاياتها نحو ذمّ ورفض الطّبائع الّتي تسوّي بين أكرم المخلوقات "الإنسان" وبين الحيوان، بل إنّها تجعل الإنسان أحطّ من الحيوان بواسطة صيغة (أفعل من) الدّالة على المبالغة.

بهذا تحقق الأمثال التّي على صيغة (أفعل من) شروط إبراهيم النّظام الّتي ذكرها، كما أنّها تكتسب في "**عيون الأخبار**" صفة نوعيّة أو تشكّل نوعا من الأمثال وهي "**الأمثال المضروبة بالطبائع**"، استنادا إلى موضوعة الطّبع الّتي تطغى عليها.

3-2-2- الحكمة:

أ - الحكمة بين الفعل والقول: نحو تحديد المفهوم

يوازي المعنى اللّغوي للحكمة معنى الإتقان ومنه أُخذ المعنى الاصطلاحي، إذ تُطالعنا في لسان العرب مادة (ح ك م) بمشتقاتها المتعدّدة على أنّها من الإحكام والإتقان، كما تستمدّ معناها من صفته عزّ وجلّ، حيث أورد ابن منظور قول ابن الأثير في ذلك: «...في أسماء الله تعالى الحَكَم والحَكِيم وهما بمعنى الحاكم وهو القاضي، فهو فَعِيل بمعنى فَاعِل، أو هو الّذي يُحكِم الأشياء ويتقنها فهو فَعِيل بمعنى مُفعِل، قيل والحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»[1]

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مادة (ح ك م).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نلاحظ من خلال هذا التّحديد جانبين في تعريف الحكمة:

1- أنّ دلالتها متعالية قدسية لأنّها مستمدّة من صفات الله عز وجل؛

2- أنّ دلالتها موسّعة وشاملة فهي تشمل " أفضل العلوم " وهنا تقترب من مفهوم الفلسفة الّتي تحوي كل المعارف والعلوم.

لو تتبّعنا هذا المنحى في تعريف الحكمة لخرجنا عن مقصد التّحديد الّذي نبتغيه هاهنا، فالحكمة الّتي نبحث عن تعريف لها هي شكل من "القول"، لأنّ مصطلح الحكمة في جلّ المعاجم التّراثية تشير إلى: « علم يُبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطّاقة البشرية، فهي علم نظريّ غير آلي، والحكمة أيضا هي هيئة القّوة العقلية العمليّة المتوسّطة بين الجَربَزة الّتي هي إفراط في هذه القوّة والبلادة الّتي هي تفريطها»[1]، فإذا كانت الحكمة هي العلم النّظري، فإنّها لا تكون إلاّ في الأفعال وحسب، بل ترد في الأقوال، وهذا يذكّرنا على نحو ما بالمفهوم الموسّع للأدب، الّذي تقدم استقصاؤه في التّراث، والّذي بدا داخلا في باب الحكمة العمليّة الّتي يُتَوصّل بها إلى كمال الأخلاق وتسوية السّلوكات الإنسانية، وعلى هذا ترتبط الحكمة في القول بجانب تقويم السّلوك وترشيده، وتلك ميزة اختصّت بها العرب، وهذا ما شرحه ابن منظور استناد لحديث النّبي صلى الله عليه وسلم، يقول:«.. وفي الحديث: إنّ من الشّعر لحِكَمًا؛ أي أنّ في الشّعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسّفه وينهى عنها، قيل أراد بها المواعظ والأمثال الّتي ينتفع النّاس بها»[2]، إذن فكلّ كلام أخلاقي ينهى عن الغواية يعدّ حكمة، وهنا نلاحظ التّركيز على المقصد، وعليه فهل يجوز أن نصف الحكمة - تبعا للتّعريف المعطى دائما- نوعا من الأمثال يرتكز على موضوعة الأخلاق؟

سنستجلي هذا من خلال معاينة التّجليات الحاضرة معنا في **"عيون الأخبار"**، ولكن قبل ذلك نتابع استقصاء تحديداتها الواردة في المؤلّفات المتخصّصة، حيث يطالعنا اليوسي في مصنفه ***"زهر الأكم في الأمثال والحكم"***، وسنلاحظ منذ العنوان أنّ ثمّة فرقا

[1]- الشريف الجرجاني، التعريفات، دط، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1995. ص 91.
[2]- ابن منظور، لسان العرب، مادة (ح ك م).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما بينهما، يقول فيها: «أُنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء في الجسد: قلوب اليونان وألسنة العرب، وأيدي أهل الصين، وما ذلك إلاّ لاختصاص اليونان بمزيّة التّبحر في علم الأشياء ومعرفة القوانين وإتقان البراهين، واختصاص أهل الصين بمزيّة عمل الصّنائع العجيبة وإتقان الأعمال الغريبة، واختصاص العرب بمزية إبانة المعاني العجيبة، والمواعظ المفيدة، في أشعارها وخطبها»[1].

نجد في كلام اليوسي تأكيدا على تعالق الحكمة والمثل من جهة، وإقرارا بتجلّي الحكمة عند العرب في الأقوال، إلاّ أنّه لم يتحدّث عن الحكمة القوليّة في انفصال عن الحكمة الفعليّة، حيث أحاط بالمفهوم الجامع للحكمة بشكل تراتبي والّذي نلخّصه في الشّكل التّالي:

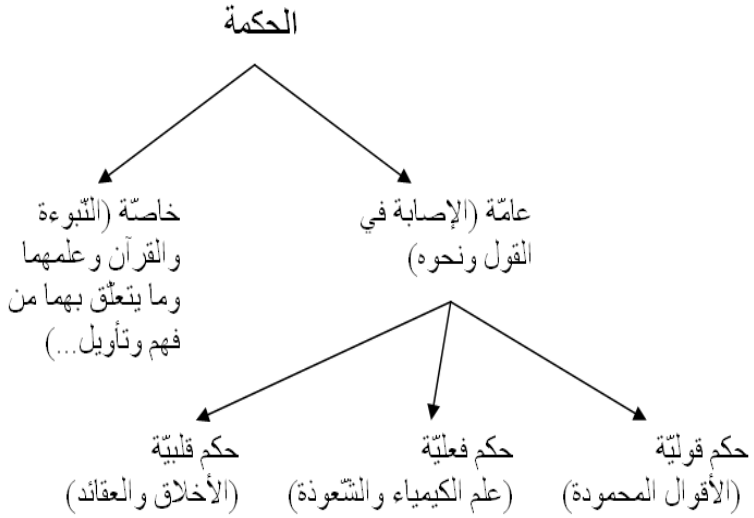

نخلص من كل هذه التّحديدات بشأن الحكمة أنّه لم يُمنح للحكمة في التّراث تعريف يستوفي خصائصها الشّكلية من حيث هي قول اللّهم إلاّ ما وجدنا من قرنها بالمواعظ والأمثال، وهذا ما يرجّح انضواءها تحت نوع المثل، وتشكيلها نوعا فرعيا باعتبار القصد التّعليمي، التّقويمي.

[1]- الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج1، ص 28.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نعتقد أنّ النّظر في التّحديدات المقدّمة في الدّراسات الغربيّة الحديثة يساعد على فهم حدودها كنوع نثري قصير، ومن ثم وصفه وتصنيفه في "***عيون الأخبار***".

يقدم معجم النّقد الأدبي التّعريف التّالي للحكمة (maxime) **:«** الحكمة نوع أدبي، وهي شكل وجيز محدود أو مؤطر بجملة تقدم إثباتا لقيمة عامة أخلاقية غالبا»[1]

نلاحظ كيف يقدّم هذا التّحديد الحكمة على أنّها شكل وجيز، بل قبل هذا يحدّدها بأنّها نوع أدبيّ، وبالإضافة إلى تحديد بنيتها بالجملة، فإنّه يحدّد موضوعها الأخلاقي، وهنا يلتقي بنوع من الأنواع الثّلاث الّتي وزّع عليها جاك فونتني النّوع الصّيغي وهي: التّعليمي، الشّعري والدوغمائي.[2]

أمّا ألان مونتاندون(Alain Montandon)، فعلى الرّغم من فصله بين المثل (proverb) والحكمة (maxim)إجرائيا إلاّ أنّه يرى صعوبة الفصل التّام بينهما، ويعود الأمر في رأيه إلى أصل استعمال الكلمتين(la maxima sentential) والّتي تعني "الحكمة الكبرى"، فهي عبارة عن مفهوم قانوني، حيث وصفها لابروير La bruyère بأنّها "قوانين أخلاقية"، لأنها بمثابة قواعد للحياة.[3]

يشير برنار روخوموفسكي هو الآخر في هذا السياق إلى الخلط الاصطلاحي الواقع بين المثل والحكمة لالتقائهما في موضوعة الأخلاقي، مستشهدا بتعريف لرولان بارت للحكمة بأنّها: « جملة مقتطعة من خطاب: موحّد، وجيز، يربط بين صمتين»[4]

ومن هذا التّعريف نخلص إلى مميّزات الحكمة :

1- قول وجيز يتّخذ الجملة بنية أساسيّة له؛

2- مُجمع عليه؛

1- Joëlle Gardes et autres, dictionnaire de critique littéraire, 2em édition, Armand colon, Paris, 1996. p 116.

2- Jaque Fontanelle, Sémiotique et littérature, p 10.

3- Alain Montandon, Les formes brèves, édition Hachette, Paris, 1992. p 31.

4- Bernard Roukhomovsky, Lire les formes brèves, p 72.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- ذو طبيعة استشهادية (مقتطع من خطاب) و بعد تواصلي (يربط بين صمتين).

الحكمة في عيون الأخبار:

سنعاين الحكمة في عيون الأخبار من خلال التّأمل في شقّيها السّند والمتن كما فعلنا مع الأنواع السابقة.

نعاين أدناه عيّنة من الأقوال الّتي تحيل صيغ أدائها على الحكمة؛ إمّا بذكر صاحبها وهو شخصية تنتمي إلى صفوة المجتمع أو الطبقة المثقفة، وإمّا بنسبتها للحكماء دون تحديد من هذا الحكم، أو تسميتها بالحكمة.

صيغ الأداء(السّند)	***عبارة الحكمة(المتن)***	***موقعها***
سُئل بعض الحكماء ما العقل؟	قال:الإصابة بالظّن ومعرفة ما لم يكن بما كان	مجلد1/ص76
قال برزجمهر	ثمرة القناعة الرّاحة، وثمرة التّواضع المحبّة	مجلد1/ص 305
قال عمر بن الخطّاب	من كثر ضحكه قلّت هيبته	مجلد1/ص 368
قال أبو الدّرداء	علامة الجاهل ثلاث: العجب وكثرة المنطق فيما لا يعنيه وأن ينهى عن شيء ويأتيه	مجلد2/ص 438
وفي الحديث المرفوع	المرء كثير بأخيه	مجلد3/ص05
قال المسيح عليه السّلام	الدّنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها	مجلد2/ص 703

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من خلال رصدنا لصيغ الأداء نلاحظ أنّها تحدّد نوع القول من خلال النّموذج (سُئل بعض الحكماء، قالت الحكماء، قال بعض أهل العلم...)، فهي صيغ تحيل على صفة القائل(الحكيم) وبذلك فهي توجّه المتلقّي لاستقبال نوع من القول يسمّى حكمة، وهنا تحضر السّمات الّتي اعتدنا وصف الحكمة بها، فهي على قدر من الإيجاز والبلاغة وذات قصد أخلاقي، وعظي، إرشادي؛ أي تعليميّة بالدّرجة الأولى، ثمّ بعد ذلك لا يهم تحديد القائل مادام ينتمي لفئة الحكماء أو العلماء.

أمّا في الأسانيد الأخرى فإنّها تختص بتسمية المتحدّث أو صاحب القول، وهنا تظهر أسماء عرفت من خلال السّياق التّاريخي والاجتماعي، على أنّها من صفوة المجتمع، وقد ميّزنا فيها:

- **النبي صلى الله عليه وسلم**: ممّا لاشكّ فيه أنّ شخصية النّبي صلى الله عليه وسلّم، تحظى في الثّقافة العربيّة الإسلامية بمكانة في أعلى الهرم، ممّا يجعل كلّ الأفعال و الأقوال الصادرة عنه بمثابة القوانين أو المنهاج الّذي يجب أن يُحتذى، وعليه فكلّ حديث نبوي شريف هو حكمة، لأنّه يشرّع نظما سامية للحياة البشرية، أقواله مسلّمات لا يمكن إنكارها، وأوامره واجبات يجب تنفيذها، ونواهيه لابد من اجتنابها.

- **الصّحابة والتّابعين رضوان الله عليهم**: وهم يسيرون على هدي النّبي وعليه لابدّ من اتّصافهم ووصفهم بالحكمة، وقد دلّ على ذلك صيغة (وقال بعض الحكماء من الصّحابة)، فهو وصف وتخصيص للحكماء ، وفي "عيون الأخبار" نجد إحالة على أسماء كثير منهم، لا يتّسع المقام هنا لذكرهم.

- كما تحضر أقوال أو حكم **للمسيح** و**لقمان**، وهما من الأنبياء والمرسلين.

- وبعض الحكم تُنسب **لشخصيّات أعجمية**، اشتهرت بانتسابها **لفئة الفلاسفة والحكماء:** كبرزجمهر، وأردشير، وأفلاطون،وغيرهم كثير.

نتساءل بصدد هذه الصيّغ إذا كان النبي بوصفه الشخصية الحكيمة الأولى ومنه التّسليم بأنّ أقواله كلّها تدخل في باب الحكمة، فماذا عن الأمثال النبوية الّتي تقدّم تمثيلا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ألا يمكن القول أنّها تشكّل نوعا فرعيا أو نقطة التقاء حقيقيّة بين المثل والحكمة؟ إنّها تؤسّس لما يمكن أن نسميه ***بالأمثال الحكمية***.

بنية الحكمة بين تنوّع الصّيغ ووحدة المقصد:

تتنوّع البنيات الصيغيّة للحِكَم الّتي يقدمها مصنف "عيون الأخبار"، وقد خلصنا من خلال رصدنا التّنويعات المتجليّة إلى الأنواع التّالية:

1- **ما يأتي جوابا عن سؤال**: وقد أشار إلى هذا النّوع الفرعي للحكمة آلان مونتاندون بمصطلح ***"question-response"***[1]، فعادة ما يطرح سؤال مسند لما لم يُسمَّ فاعله (سائل مجهول الهويّة) حول قيمة خلقيّة أو سلوك أو خلاصة تجربة في الحياة، فالسؤال وسيلة للمعرفة، وربما كان السّائل غير موجود أصلا، فلا يعدو أن يكون هذا السّؤال نمطا من الكلام اصطنعته العرب للتّعليم والتّلقين، وللتّوضيح نقدّم هذه الأمثلة:

- سُئل بعض الحكماء: ما العقل؟ فقال: الإصابة بالظّن ومعرفة ما لم يكن بما كان(مجلد1/ص76)

- قيل لبعض الحكماء: متى يكون الأدب شرّ من عدمه؟ قال إذا كبر الأدب ونقص العقل.(مجلد1/ص380)

- قيل لبرزجمهر: بم أدركت ما أدركت من العلم؟ فقال ببكور كبكور الغراب، وحرص كحرص الخنازير ، و صبر كصبر الحمار.(مجلد2/ص522)

- قيل لأفلاطون: بماذا ينتقم الإنسان من عدوه؟ قال: بأن يزداد فضلا في نفسه.(مجلد2/ص111)

تبدو هذه الإجابات الوجيزة مركّزة تلخّص قيما عظيمة وخبرات حياة طويلة في جملة أو اثنتين، كما تشرح وتمثّل كما في جواب برزجمهر، الّذي أراد من خلال هذه التّشبيهات بحيوانات يأنف النّاس من صفاتها، أن يبيّن مشاقّ تحصيل العلم والمعرفة.

2- **صيغة التّعداد بين إجمال القول وتفصيله**: ثمّة صيغ تتواتر بشكل ملفت للانتباه في "عيون الأخبار"، وهي تؤكّد على البعد التّعليمي للحكمة إذ تجمع أو تجمل

[1]- Lire les formes brèves, p 25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قواعد (دينيّة، سلوكيّة، أخلاقيّة...) وتنظّمها بشكل تعدادي يسهّل على المتلقّي حفظها ومن ثمّ العمل بها، وهي بذلك تأخذ طابع إجمال الكلام ثمّ تفصيله، وهي عادة في القول دأبت العرب عليها، بالتّدرج من العام إلى الخاص بغية إفهام السّامع والوصول به إلى غرض الكلام، ولنمثّل بالعيّنة التّالية:

- وفي الحديث المرفوع: العلم علمان؛ علم في القلب فذلك العلم النّافع، وعلم على اللّسان فذلك حجّة الله على بن آدم.(مجلد2/ص525)

- قال الخليل: الرّجال أربعة؛ رجل يدري ويدري أنّه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنّه يدري فذلك ناس فذكّروه، ورجل لا يدري ويدري أنّه لا يدري فذلك مسترشد فعلّموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنّه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه. (مجلد2/ص525)

- وقال الحكيم: ثلاثة لا يعرفون إلاّ في ثلاثة مواطن؛ لا يعرف الحليم إلاّ عند الغضب و لا الشّجاع إلاّ في الحرب، ولا الأخ إلاّ عند الحاجة إليه.(مجلد3/ص86)

- قال بعض الحكماء: مدار صلاح الأمور في أربع؛ الطّعام لا يؤكل إلاّ على شهوة، والمرأة لا تنظر إلاّ إلى زوجها، والملك لا يصلحه إلاّ الطّاعة والرعيّة لا يصلحها إلاّ العدل. (مجلد3/ص220)

نلاحظ تواتر الصّياغة نفسها بغضّ النّظر عن القائل ومواضيعها حول السّلوكات القويمة والصّفات الحميدة الّتي يتمّ بها صلاح الأمور في الحياة، كما نلاحظ أنّ هذه الصّيغة لا نجدها في الأقوال المسندة لأشخاص معروفين فحسب، بل كثيرا ما تكون مجهولة القائل، ممّا يصحّ معه نفي شرط النّسبة المعلومة في الحكمة، أو بالأحرى اعتبارها من متغيّرات الحكمة، وهي نقطة تقاطع أخرى مع المثل.

وخلاصة القول في المأثورات أنّها أقوال تمتاز بالإيجاز الشّديد، وتهيمن عليها وظيفة استشهاديّة حجاجيّة تجعلها على اتّصال دائب بالسّياق، وقد تمّ اعتبارها في التّراث نوعا مستقلا على غرار المخاطبات والمكاتبات، وقد تجلى من خلال ما ورد في "عيون الأخبار" أنّ لها نوعين ثابتين هما المثل والحكمة، تنضوي تحتهما تنويعات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كثيرة، وأنّهما يتداخلان في كثير من الثّوابت لعلّ أبرزها المحتوى الحكمي الّذي يؤدي دور التّوجيه والتّعليم، ومنه تحقيق المقصد العام للأدب، ألا وهو المقصد الأخلاقي.

-تركيب:

نخلص على سبيل التّركيب في هذا الفصل إلى ما يلي:

- أنّ ما قدّمه أسلافنا من تحديدات وتقسيمات ينمّ عن وعيهم بقضية التّصنيف، بل وضرورته، بهدف معرفة صحيح الكلام من فاسده بغرض الإبقاء على "**المقبول**" منه وزوال "**المرذول**"، كما أفدنا منه فائدة جمة للإحاطة بأشكال وأنواع "الكلام" في "**عيون الأخبار**".

- يتقدّم شكل الحديث مؤطّرًا بالإخبار، ممثّلا في عناصر الرّواية من إسناد و نسبة، وهذا ما ينفي وجود ***صيغة خالصة*** في أيّ شكل للكلام العربي حيث يتداخل القول والإخبار.

- أنّ السّند الّذي قد يبدو مجرّد إطار، كان له دور فعّال في قراءة الأنواع المختلفة في "***عيون الأخبار***" وفهمها، سواء من حيث إحالته على المتكلّم، أو طريقة نقله

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للكلام، وكذا التّسميات والصّفات الّتي تساعد في تحديد انتماء النّص من جهة، وتبيّن الخلفيّة الّتي قام عليها تصوّر ابن قتيبة للأشكال والأنواع.

- بروز ثنائيّة (***شفوي/مكتوب***) بشكل واضح، ممّا جعلنا نميّز بين **المخاطبات والمكاتبات**.

- أنّ لشكل الحديث أنواع ثابتة تتدرج تحتها أنواع فرعيّة، إلاّ أنّها تشترك في ثوابت محدّدة وهي ***الملقي والمتلقّي وصيغة النّص***؛ فإذا كانت ***المخاطبات*** تستدعي مخاطِبا ومخاطَبا ***حاضرين وقت التّلفظ***، يشتركان في بناء النّص وإنشائه، فإنّه في ***المكاتبات يحضُر*** الكاتب ***ويؤجّل*** حضور المكتوب إليه، رغم الإشارة إليه وتعيينه في الخطاب-عادة-، وإذا كان هذان الطرفان معروفين في نوعي المخاطبات والمكاتبات، فليس الأمر نفسه في المأثورات الّتي يجهل قائلها–غالبا-، وهنا يمكن تمثيل هذا التّمايز في الجدول التّالي:

شكل الحديث	***الملقي***	***المتلقّي***	***السّمة المهيمنة***
المخاطبات	حاضر	حاضر	حجاجي تواصلي
المكاتبات	حاضر	مؤجّل (غائب)	وصفي إيصالي
المأثورات	مجهول	غائب	استشهادي

- تتقدّم ***البلاغة*** باعتبارها نمطا جامعا بين هذه الأنواع، رغم تفاوتها من نص لآخر في تحقيق شروط الإيجاز والبيان.

- تختلف مقاصد هذه الأنواع وتتنوّع من نوع لآخر بل وفي النّوع نفسه، بشكل لا يمكن حصره، ولكنّها تلتقي في ***المقصد التّوجيهي***.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- هيمنة أنواع محدّدة وبروزها أكثر من غيرها دعانا للاهتمام بها على غرار ***الخطبة*** في ***المخاطبات***، و***المقتطف*** في ***المكاتبات***، و***المثل*** في ***المأثورات***.

- توجد علاقة بين الكتب كما صنفها ابن قتيبة وبين بعض الأنواع، حيث وجدنا هيمنة ***الأمثال*** في ***كتاب الطبائع والأخلاق المذمومة***، و***الخطب*** في ***كتاب العلم والبيان***، ***والمحاورات*** الوعظيّة في كتاب ***الزّهد*** و***الرّسائل*** في ***كتابي السلطان والحرب***، و***المقتطفات*** في ***كتابي السلطان والعلم والبيان***، ممّا يعكس تقاطع الشّكل بالموضوعات.

- يصعب – حتّى لا نقول يستحيل- التّحديد الخالص لأنواع الحديث، لأنّها تتداخل من خلال اشتراكها في عدّة سمات.

- أنّ الحديث في "***عيون الأخبار***" باعتباره شكلا جامعا تنضوي تحته ثلاث أنواع من القول هي ***المخاطبات والمكاتبات والمأثورات***، تتفرع بدورها إلى أنواع فرعية كثيرة، وهو ما يمكن اختزاله في المخطّط التّالي:

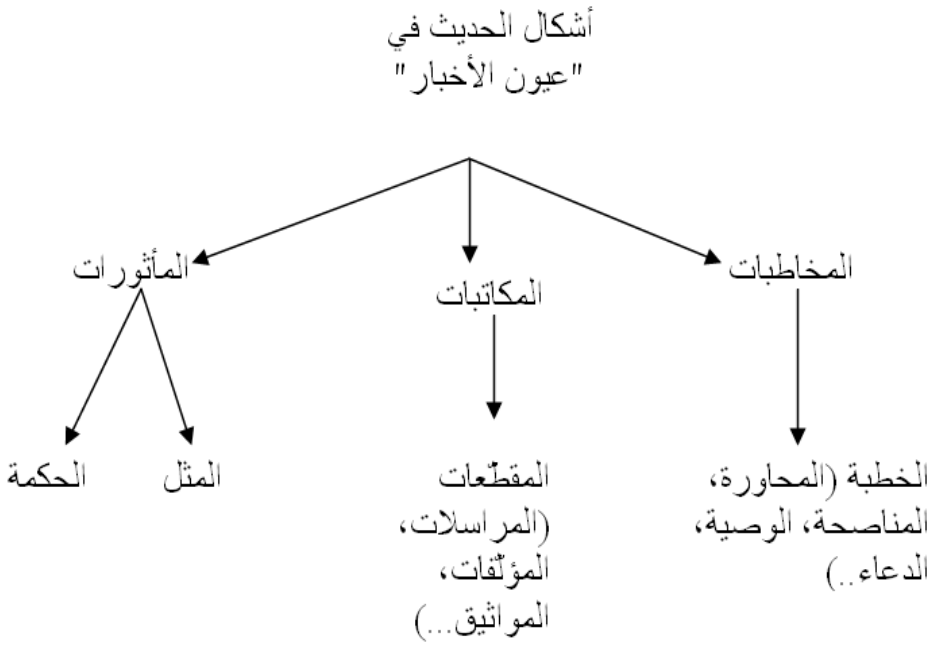

يمثّل التّفريع الثّلاثي (المخاطبات، المكاتبات، المأثورات) جانب الشّكل النثري العام الّذي يمكن أن يوجد في "عيون الأخبار" وفي غيره، أمّا ما يقع تحته من تفريعات فهو خاص بـــ"عيون الأخبار" وحسب، ولهذا لو تتبّعنا هذا التفريع لما أمكن حصره، حيث سيمثّل كل "نص" نوعا فرعيّا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثّاني: أشكال الخبر

بين

الأنواع والأنماط والمقاصد

1- بنيات الخبر: من البساطة إلى التركيب

2- أنماط الخبر: الواقعي واللاّواقعي

3- مقاصد الخبر وأبعاده بين الجد والهزل

- تركيب

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الفصل الثاني: أشكال الخبر بين الأنواع والأنماط والمقاصد

«وقام مجيء الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطؤ مقام العيان، وعُرِفَت البلدان والأقطار والأمم والتّجارات والتّدبيرات والعلامات، وصار ما ينقله النّاس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الأخبار عن الرّسل وسلّما إلى التصديق وعونا على الرّضا بالتّقليد، ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند النّاس لما انتقلت الأخبار وحلّت هذا المحل»

[رسائل الجاحظ/رسالة كتمان السّر وحفظ اللّسان/ص68]

تمهيد:

يتقدّم الخبر وفق الطّرح الّذي انطلقنا منه على أنّه أحد أجناس الكلام الثّلاث: الحديث، الخبر والشعر؛ بمعنى أنّ عمليّة الإخبار هي "إنجاز" للكلام بصدد ما وقع، فالمُخبِر(إذا جازت مقابلته بالمتكلِّم أو المحدِّث) يخبر عن شيء ليجعل المخاطَب على علم بما وقع، وهنا ستكون العلاقة بين المخبِر والإخبار والمخاطَب تقوم على الانفصال بوجه عام لأنّها تتمّ على مسافات متعدِّدة الملامح والأبعاد[1].

استنادا لهذا ستتمّ معاينة الخبر باعتباره شكلا سرديّا-حكائيّا متعدّد الجوانب، وهنا لا بأس من الإشارة إلى القيود الّتي وُضِعت على السّرد، والّتي أدّت إلى إقصاء جانب هام منه، إذ «لم يكن السّرد مقبولا في الثّقافة الكلاسيكية إلاّ عندما يشتمل على حكمة (كليلة ودمنة) أو عبرة (السرد التاريخي) أو صورة بلاغيّة ترفع من قدره (المقامات)»[2]. على هذا الأساس لا نكاد نعثر في التراث على وجهات نظر اهتمّت بالسّرد بمعزل عن أحد هذه الأهداف والغايات أو كلها مجتمعة، انطلاقا من النّسق

[1] - سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 191.
[2] - عبد الفتّاح كيليطو،الأدب والغرابة، ص 24.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الثّقافي الّذي حكم الأخبار وروايتها وتدوينها في التّراث، وبالاعتماد على ما تقدّمه النّظريات السّردية الحديثة وما تمدّ به نظريةَ الأنواع من معاييرَ للتّصنيف سنحاول مقاربة الأنواع الّتي تندرج ضمن شكل الخبر كما يقدّمه مصنَّف "عيون الأخبار"، والّتي لاحظنا مبدئيًّا أنّها تخضع لثنائيات يمكن اعتبارها معايير للتّصنيف، بحكم أنّ الالتزام بوجهة نظر واحدة للخبر ستحجب عنّا باقي الزوايا، وهذه الثنائيات هي:

1- البسيط/ المركّب: ويتعلق الأمر بتصنيف بنيات الخبر؛

2- الواقعي/ اللاّواقعي: ويتعلق بتصنيف أنماط الخبر؛

3- الجدّي /الهزلي: ويتعلّق بتصنيف لمقاصد وأبعاد الخبر.

1- بنيات الخبر: من البسيط على المركّب

1-1- وجهات نظر:

نتّجه من خلال ثنائية بسيط/مركب لرصد بنيات الخبر، وحيث أنّنا لم نعثر في الدّراسات التّراثيّة على اهتمام بجانب التّركيب والبساطة، نظرا لهيمنة معايير ووجهات نظر أخرى سنتبيّنها لاحقا، فلا مناصّ من استحضار خلفيّة نظريّة حديثة غربيّة وعربيّة بالتعرّض لوجهات نظر متباينة في المسألة علّها تساعدنا على قراءة بنيات الخبر كما يتجلى في "عيون الأخبار" ومن ثم تصنيفه.

1-1- 1- في الدّراسات الغربيّة:

1-1- 1-أ- الشّكلانيّون الرّوس: التّأسيس والتّصنيف

إنّ المتأمّل في أعمال الشّكلانيين الرّوس وما قدّموه من أطروحات تأسيسيّة بصدد الدّراسات السرديّة، يلاحظ أنّهم قد أشاروا إلى مسألة البساطة والتّركيب أثناء تمييزهم بين الأنواع السرديّة باعتبار ثنائيّتين متلازمتين هما: الطّول /القصر والبساطة/ التّركيب؛ ***فبوريس إخنباوم (B.Eikhenbaum)*** يفرق بين الرّواية والقصة القصيرة على هذا الأساس، من زاوية نفي كونهما شكلين متناظرين، فالرّواية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في عُرفِه:« شكل تلفيقي (ولا يهم إلاّ قليلا كونها تطوّرت انطلاقا من مجموعة قصص قصيرة، أو أنّها تعقدّت بإدراجها كتابات تصف العادات) ؛ أمّا القصة القصيرة فهي شكل أساسيّ، وبدئي(وهو ما لا يعني بدائي). الرّواية أتت من التّاريخ ومن حكاية الأسفار؛ أمّا القصة فقد جاءت من الخرافة ومن الأحدوثة. إنّ الفرق كما هو واضح، فرق مبدئيّ، حدّده طول الأثر الأدبيّ».[1]

نلاحظ على تمييز إخنباوم أنّه يتعرض لمسألة الأصل، فالأشكال الطويلة الحديثة ناشئة عن أشكال طويلة قديمة، والأشكال القصيرة عن أشكال قصيرة سابقة، ولكن لو تأمّلنا قليلا للاحظنا أنّه لم يلغِ إمكانية تحوّل هذه الأشكال القصيرة عن طريق "تلفيقها" إلى شكل طويل، كما هو شأن الرّواية.

أمّا شلوفسكي فيشير إلى المسألة في معرض حديثه عن بناء القصّة القصيرة والرّواية ووصفه لتقنيات التّركيب الّتي تساعد على تحوّل البسيط إلى مركّب، وهي ما أطلق عليه بنية "التّوازي" وبنية "التّضمين".[2]

ويلاحظ الباحث أنّ هذه البنيات هي بنيات كتابيّة (livresques)؛ بمعنى أنّ النّصوص الكتابية وحدها يمكن أن تتمتّع بهذه البنيات والخصائص، في حين لا تتوفّر النّصوص الشفويّة إلاّ على نمط ربط أوليّ.[3]

نستنتج من دراسة شلوفسكي أنّ سمة البساطة تنسب للنّصوص الشفويّة، في حين تختصّ النّصوص الكتابية بالتّركيب. وهذه القاعدة ستترسّخ في جلّ الدّراسات اللاّحقة الّتي تناولت المسألة.

من الشكلانيّين كذلك توماتشيفسكي في صياغته لنظريّة "الأغراض" (les thèmes) الّتي قدّم من خلالها عدّة مفاهيم مركزيّة في السرديّات الحديثة، أهمّها تفريقه بين المبنى الحكائي والمتن الحكائي[4]، وكذا اكتشافه نظام الحوافز(les motifs) وتصنيفه إيّاها، وكذلك إعادة صياغته لمفهوم البطل الذي يرى أنّه لم يعد

[1] - بوريس إخنباوم، "حول نظرية النثر"، نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلانيين الروس، ص 112.
[2] - شلوفسكي،" بناء القصة القصيرة والرواية"، المرجع نفسه، ص 142.
[3] - م ن، ص 143.
[4] - توما تشيفسكي، "نظرية الأغراض"، م ن، ص 180.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ضروريا على مستوى المتن الحكائيّ، ولكن موقعه يبرز عند تحويل المادّة إلى مبنى حكائي، إذ يضطلع بالرّبط بين تلك الحوافز، وهذه الظاهرة تظهر بوضوح « في ذلك الشكل الحكائيّ الأوّل الّذي هو الأحدوثة ، فالأحدوثة تمثّل بصفة عامّة شكلا موجزا، غامضا ومتقلّبا، للمتن الحكائيّ، وفي كثير من الحالات يختصر هذا الشكل حتى لا يكون سوى نقطة تقاطع حافزين رئيسيّين(...) أثناء تقاطعهما يخلق الحافزان أثر غموض وتعارض».[1]

الشّاهد في هذا الكلام على ما نحن بصدده، أنّ توماتشيفسكي يعتبر الأحدوثة (أو النّادرة) شكلا أولا؛ بمعنى تأسيسي ، وموجزا وغامضا ومتقلّبا؛ أي قابليّته للانفتاح والتحوّل والتطوّر، بالإضافة إلى ارتكازه على الحدث أو الحدثين، في حين لا تكون الشخصيّة إلاّ وسيلة للرّبط بينهما، وهذه هي أبرز السِّمات الّتي ستُنعت بها الأشكال البسيطة في الدِّراسات اللاّحقة.

1- 1-1- ب- *أندري يولس ونظريّة الأشكال البسيطة:*

يمثّل كتاب ***أندري يولس*** ***(André Jolles)*** الموسوم بـــ ***"الأشكال البسيطة" (Les formes simples)*** محاولة متميّزة اهتمت بالأشكال السّردية البسيطة وخصوصياتها، حيث درس الخرافة(la légende) والحكاية البطولية(la geste) والأسطورة (le mythe)والأحجية(la devinette) والمناقب(les memorales) والحكاية (conte)والنكتة(le trait)...وغيرها مركِّزا على الخصوصيات الّتي تميّز كل شكل من هذه الأشكال، وكيفية تطورها في علاقتها بالأشكال المركبة الّتي أصبحت سائدة فيما بعد.[2]

يحدّد يولس البسيط في مقابل المركّب بمجموعة من الخصائص والمميّزات، فالأوّل يمتاز بالشّفوية والعاميّة والحيويّة التي تبدو غير مقنّنة أو مشروطة ممّا يخرجه في نظر الباحث من دائرة الأدبيّ، في مقابل الثاني؛ أي المركب؛ الذي يتميز بلغته السّامية فهو على درجة من التماسك والثبات ممّا يؤسس لمعياره الأدبيّ، ثم

---

[1] - توماتشيفسكي، "نظريّة الأغراض"،نظريّة المنهج الشكلي، ص 208.

[2] - A.Jolles,Les formes simples; ed.Suil,Paris,1972 ،نقلا عن سعيد جبار، الخبر في السّرد العربي: الثوابت والمتغيرات،ط1، شركة المدارس للنشر والتوزيع، المغرب،2004. ص 109.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ينتقل بعد هذا التمييز لتحديد شروط المرور من البسيط إلى المركّب، وفي هذه النّظرة إقرار من الباحث أنّ الشّكل البسيط هو النّواة الّتي تتشعب وتتبثق عنها الأشكال المركّبة.

وخلاصة القول في وجهة نظر يولس للأشكال البسيطة أنّه يحدد معياره – إضافة إلى الشفوية والقدرة على التحوّل – فهو أقل تمركزا في الفضاء والزّمن،فالأشكال البسيطة هي أشكال زمنية بامتياز، حيث أنّ التركيز فيها على الحدث أكثر من أي عنصر آخر.[1]

نستنتج من مقترحات يولس حول الأشكال البسيطة أنّه حاول الإلمام بجانب النّشأة والتّطور الّتي تخضع لها الأجناس والأنواع الأدبيّة، بتعرّضه لمسألة الأصل، وهو ما يوازي الفرضيّة الّتي انطلقنا منها في بحثنا هذا باعتبار الأشكال القصيرة الّتي يتضمّنها مصنف "عيون الأخبار"، أشكال بدئية أو أنوية ستتشكّل منها أشكال أخرى في حقبة تالية.

1-1- 1-ج- آلان مونتاندون: من النّادرة إلى الترجمة

من الدّراسات الّتي تناولت الأشكال السّردية القصيرة، وتعرّضت لمسألة البساطة، ما قدمه آلان مونتاندون في عمله الذي أشرنا إليه آنفا والموسوم بـــ"الأشكال الوجيزة"، فعلى الرّغم من تركيزه على الأشكال القوليّة (الحكم، الأمثال، المقتطفات...)، إلاّ أنّه يخصّص الفصل الخامس للحديث عن شكل سردي بسيط هو"النّادرة" أو"الأحدوثة"(l'anecdote)، والّتي تقترب في مميّزاتها من الخبر، ففي تعريفه للنّادرة يقرّبنا أكثر من ذلك الخليط أو الطبق المتنوّع الّذي نلمسه في كتب الأخبار العربيّة، والّتي لا يوحّد بينها سوى الموضوع أو الطّابع السّردي المشترك. وعلى هذا الأساس يتبيّن أنّ السّرد هو النّمط الّذي يحوي أشكالا وأنواعا لا حصر لها في مختلف الثّقافات والعصور.

يعرّف ***ألان مونتاندون*** النّادرة بقوله:« هي تجميع للحظات سرديّة مختلفة، دون أيّ رابط وثيق في دلالتها، ومصنفات النّوادر الّتي يرجع أصلها إلى القصص

[1] - A.Jolles,Les formes simples,p59، نقلا عن : سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص 110.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخفيّة أصبحت مع مرور القرون شكلا أدبيًّا حقيقيًّا. والكلمة نادرة(Anekdotos) تحيل على مضمون أكثر ممّا تحيل على تقنيّة في التّأليف...»[1]. ولهذا نراه ينطلق في تحديد خصائص ومميّزات النادرة مركزا على جانبيها السّردي والموضوعي، دون تغليب أحدهما على الآخر، وهذا ما يتّضح من كلامه إذ يقول:« بقي أن نميّز اللّفظ والشّيء، الحدث وسرده، فمن وجهة نظر سرديّة، لتكون نادرة يجب أن تستند على خصائص أساسيّة مثل: مصداقية الاعتقاد، التّمثيلية، الإيجاز في الشّكل، والوقع الذي يدفع إلى التفكير»[2].

نلاحظ من خلال هذا الكلام محاولة الباحث الموازنة بين الخصائص الشّكلية والمضمونية، وهي طبيعة كل دراسة سرديّة منذ أقرّ الشكلانيّون أنّ للعمل السردي - مهما كان- مبنى ومتنا حكائييّن.

ويذهب مونتاندون إلى اعتبار النادرة« محدّدة بوظيفتها الوصليّة للحدث القصير البارز(المهم) والواقعي القابل للملاحظة والمفارق بشكل خاص»[3]، وهنا تحديد لثوابتها المتمثّلة في تركيزها على الحدث القصير، المهم، الواقعيّ والمفارق وهي سمات تقارب ما رأيناه عند يولس، مما يدعو للمطابقة بين مفهومي البسيط والوجيز، أو على الأقل احتواء الأول للثّاني.

يميّز مونتاندون للنّادرة ؛باعتبارها شكلا سرديا؛ نوعين فرعيّين هما: التّرجمة(biographème) و(Ana)، وقد حدّد الأولى بكونها« قصة موجزة دون تفاصيل ثانوية تهتم بشخصية مفردة»[4]، وهنا تتحدّد خاصيّة البساطة بإيجازها واختصاصها بموضوع شخصية مفردة.

أمّا الثانية الــ Ana (لم نجد لها مقابلا بالعربية) فيبدو من خلال الباحث أنّه لم يتم إدخالها ضمن الأنواع الأدبيّة، إلاّ مؤخّرا، وهو ما يوضّحه التّعريف المعجمي الّذي استشهد به، جاء فيه: « لا تدلّ Ana على شئ، وهي لا تعدو أن تكون مجرّد

---

[1] A. Mountaindon, Les formes brèves, p 99.-
[2] A. Montandon,Les formes brèves,p 100 .-
[3] Ibid, p 100. -
[4] Ibid, p 101. -

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لاحقة terminaison للأسماء والأفعال ولكنها مع مرور الوقت أصبحت تشير إلى عناوين مصنفات خواطر متّصلة وحكايات ونكت تاريخية تسمى بمؤلفات الـــ (des Ana) « livres en Ana»[1].

وهي تشترك مع التّراجم في تناول شخصية مفردة إلاّ أنّها «تهتم غالبا بالحياة الماديّة والثقافية للأشخاص المثقفين والمهذبين، وهنا تكمن وظيفتها التأريخيّة»[2].

ولمّا كان النّوع لا يبرز ولا يتحدد إلا إذا كان في علاقة تجاور مع الأنواع الأخرى، فإن مونتاندون يجري تمييزا بين النّادرة باعتبارها شكلا بسيطا، والقصّة باعتبارها شكلا مركّبا، مصرحا أنّ « ما يميّز النادرة عن القصة، كون هذه الأخيرة تتضمن عدّة لحظات متميّزة في علاقة بحدث مركزيّ، وحدة الحدث في النّادرة يقابله التّكرار الموضوعي في القصة»[3].

نخلص قي قراءتنا هذه إلى أنّ مونتاندون يميّز النّادرة كشكل وجيز وبسيط يرتكز على الحدث مع مراعاة شروط تتمثل في: الإيجاز والواقعيّة والتمثيليّة والوقع الدّافع إلى التّفكير، مع بساطة تكوينها مقارنة بالقصّة الّتي تتضمّن عدّة لحظات سرديّة عدّة موضوعات، وهي تتجلّى من خلال نوعين: الترجمة، والـــ Ana.

1- 1-2-في الدراسات العربيّة الحديثة:

حاول الكثير من الباحثين استثمار منجزات النّظريات السرديّة لقراءة التّراث السّردي العربي، وسنكتفي هنا بالتعرّض للدّراسات التي حاولت مقاربة "الخبر" والبحث في بنياته، متعرضة لمسألة البساطة والتركيب.

1-1-2- أ- محمد القاضي ومحاولة الإلمام بمستويات الخبر

يقدّم محمد القاضي في عمله الموسوم بـــ"الخبر في السّرد العربي: بحث في السّردية العربية"[4]، دراسة مستفيضة حاول من خلالها الباحث الإلمام بكلّ جوانب

---

[1] - Ibid, p 104.
[2] - Ibid, p 105.
[3] - A. Montandon,Les formes brèves,p 108-109 .
[4] - محمد القاضي، الخبر في السرد العربي: بحث في السردية العربية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخبر، مركّزا على تنويعاته المختلفة كما تتجلّى في كتاب "الأغاني"، منطلقا من فرضية مفادها أنّ الخبر باعتباره نوعا أدبيا اكتمل على يد أبي الفرج الأصفهاني.

يتناول الباحث الخبر بالدّراسة باعتباره «وحدة سرديّة مستقلّة»، وعليه تتمّ معاينته على مستويين: مستوى الخطاب ومستوى الخبر، بما يوازي مفهوميّ المبنى الحكائي والمتن الحكائي عند الشكلانيِّين الرّوس كما مرّ معنا.

وقد خلص من خلال النماذج التي عاينها إلى أنّ للخبر العربي أربع بنيات أطلق عليها: الطّلب، المخالفة، التّحويل، واللّغز، والّتي يصفها بالبنيات البسيطة. إلا أنّ هذه البنيات البسيطة ليست ثابتة، فقد لاحظ أنّها يمكن أن تنتج بنيات مركّبة إذا وضعت بعضٌ إلى جانب بعض تربطها علاقات معينة؛ وهنا ستبدو استفادة الباحث من مقترحات الشكلانيّين جلية، إذ يصف نوعين لهذه البنيات وهما: " بنية التضمين" و"بنية النظم" . فأمّا الأول فتتحقّق بأن يُضمّن خبر في خبر، وهي في الخبر العربي –كما يرى الباحث- لا تتجاوز ثلاث مراتب، أمّا الثّانية فتتحقق عندما تضطلع شخصية واحدة بعدة حوادث منفصلة؛ بمعنى أنّ الشخصية هي التي تجمع بينها[1].

يخرج الباحث بعد وصفه وتحليله بنتيجة مفادها أنّ الأخبار العربية تمتاز ببساطة بنيتها، المرتكزة على الحدث، وأنّ الحدث الغالب عليها هو حدث القول أو فعل القول، مبرّرا هذه الظاهرة بقوله: «ولعلّ قرب الأخبار من الطور الّذي غلبت عليه المشافهة هو الّذي جعل بنياته تنزع إلى البساطة، أما البنى المركّبة الّتي ترد عليها الأخبار فجلّها مكون من عدد من البنى البسيطة تنضد على نحو يؤلف بنية مركّبة»[2].

في كلام الباحث هذا تنبيه إلى أنّ بنية الخبر البسيطة منفتحة، حيث يمكن أن توسّع وتركب وتتعقد، لتنتج أخبارا مركبة، ولكنّها في نظر الباحث تبقى "أخبارا"، فما يقال في الخبر البسيط هو نفسه ما يقال في الخبر المركب بعد تفكيكه إلى أخبار بسيطة، وعليه فإنّ الباحث من خلال اشتغاله على أخبار "الأغاني" يخلص إلى

[1] - محمد القاضي، الخبر في السّرد العربي، 366.
[2] - م ن، ص 368.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنّها«تنزع من حيث بنيتها إلى البساطة، إذ هي في أكثر الأحيان كلام ينقل كلاما لذلك كان حظّ الأخبار المركّبة ضئيلا. وعلى غرار الأجناس القديمة والشعبية وجدنا الأخبار الأدبية تنزع إلى تقديم الوظائف على الشخصيات، فما يقال أهمّ من القائل، وما يحدث أهمّ من الفاعل، ولعل هذا هو الّذي وهب الأخبار قدرة كبرى على التّحويل(...) فالأخبار تنزع إلى "ابتلاع" ما يحوم حولها من شعر و أمثال ونقد ومنافرات وصور بلاغيّة وغيرها وتمثّلها بإكسابها الخصيصة السّرديّة الّتي تندرج بواسطتها في مجال الأخبار »[1].

يفضي بنا هذا الكلام إلى مسألة ذات صلة وطيدة بالبحث في الأنواع والتّصنيف، ألا وهي مسألة التّفاعل والتّداخل بين الأنواع واختلاط الصّيغ حتّى في أبسط الأشكال الأدبيّة كالخبر، كما نلاحظ لفتة هامّة لخصوصيّة تميّز بها التّراث النّثري العربي، ألا وهي احتفاؤه بالكلام والكلمة احتفاء كبيرا، وعليه دخول هذه الأخبار حيّز الأدبيّة لما تتميّز به من "بلاغة".

1-2-ب - سعيد يقطين وعتبات تصنيف الخبر

تعدّ الدّراسة الّتي قدّمها سعيد يقطين تحت عنوان " الكلام والخبر: مقدمة للسّرد العربي" دراسة عميقة من حيث اقتراحه نموذجا يستوعب مختلف تجلّيات الكلام العربي، وحسبنا هنا أن نشير لجانبي البساطة والتّركيب باعتبارهما معيارين ثابتين لتصنيف الخبر كما أضاء لهما الباحث.

يعتبر سعيد يقطين الخبر الشّكل الجامع لأنواع متعدّدة حدّد منها أربعة أطلق عليها "الأنواع الأصول" وهي: الخبر، الحكاية، القصّة، السّيرة. والعلاقة بين هذه الأنواع تحتكم إلى مبدأ التّراكم على مستوى الأحداث والشخصيات،«فإذا كان الخبر أصغر وحدة حكائيّة، فإن الحكاية تراكم لمجموعة من الأخبار المتّصلة، والقصّة تراكم لمجموعة من الحكايات، والسّيرة تراكم لمجموعة من القصص»[2]، وهو يرى أنّ النّوعين الخبر والحكاية يرتكزان على "الحدث"، في حين ترتكز القصّة والسّيرة

[1] - محمد القاضي، الخبر في السرد العربي، ص 406.
[2] - سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 195.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على "الشّخصيّة"، وأنّ هذه الأنواع متكاملة فيما بينها موجودة أبدا ولكنّها قابلة للتحوّل والتجدّد والتوالد، بمعنى أنّها منفتحة وليست مغلقة وثباتها ثبات نسبي.

لم يستطرد الباحث في الحديث عن أوجه البساطة والتّركيب في هذه الأنواع، إنّما اكتفى بإشارة مركّزة لأنّه بصدد وضع نموذج نظري يستوعب مختلف التّجليات الكلامية، فكأنّا به يضعنا أمام العتبة الّتي منها يمكن أن نسلك أيّ سبيل نراها ملائمة ، وهو ما نجده عند باحثين آخرين استفادوا من اقتراحاته كما هو الحال عند سعيد جبار.

1- 2- ج- سعيد جبار: نحو محاولة استثمار المقترحات الغربيّة والعربيّة

يقدم الباحث في عمله "الخبر في السّرد العربي: الثّوابت والمتغيّرات"، دراسة حول الخبر مستفيدا من الدّراسات العربيّة والغربيّة، مستثمرا منها كل ما من شأنه أن يبلور تصورا حول ماهية الخبر، ثوابته ومتغيّراته، متّخذا من مؤلّفات ابن الجوزي "الأخباريّة" المختلفة مدوّنة للاشتغال عليها، وقد تناول الخبر باعتباره نوعا سرديًّا بسيطا، وتوصّل من خلال تحليله إلى أنّ الخبر كنوع بسيط له خصائصه الذّاتية النّوعية الّتي تجعل منه بسيطا في كل شيء، وتتمثل هذه البساطة في نظره فيما يلي:[1]

- الخبر بنية سرديّة بسيطة قوامها السّهولة والإيجاز؛
- الخبر سرد يتمركز بالأساس حول الحدث الواحد والبسيط؛
- الخبر سرد يدور في غالب الأحيان خارج الزّمان والمكان؛
- الخبر سرد منفتح قابل للتّرهين في كل لحظة وقابل للتحوّل؛
- الخبر يتميّز بقلّة تنوّع صيغه الخطابيّة وهيمنة صوت السارد فيه.

فالخبر كما حدده الباحث سرد لحدث بسيط مجرد عن الزمان والمكان، إلاّ أنّ حيويته تفتح المجال للمرور من البسيط إلى المركب، ذلك أنّ« التّرهينات المتواترة للخبر الواحد، وعبر أصوات سرديّة مختلفة تحكمها بنيات سوسيو-ثقافية مختلفة

[1] - سعيد جبار، الخبر في السرد العربي: الثوابت والمتغيرات، ص 135.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تساهم كثيرا في المرور من الخبر إلى الحكاية أو القصة أو السيرة»[1]، وهنا نلاحظ أنّ الباحث انطلق من مقترح سعيد يقطين حول الأنواع الأصول للخبر، وعمل على توسيعه من خلال الاشتغال على مدونة خبرية معينة.

نخلص من خلال استعراضنا لهذه الدراسات إلى تحديد الأطر العامة التي ستحدد عملنا في تصنيف أنواع الخبر في "عيون الأخبار" استنادا إلى معيار البساطة والتركيب على مستوى بنياته، حيث نميز مبدئيا نوعين للخبر وهما: الخبر البسيط، والحكاية، فكيف يتجلى هذان النوعان من خلال "عيون الأخبار"؟ ما هي خصائص كل منهما؟ وكيف يتم التمييز بينهما؟ وكيف تبدو البساطة والتركيز في بنياتهما؟

1- 2-عيون الأخبار: انفتاح البنية وتحول الخبر

1-2-1- الخبر البسيط:

استنادا لما سبق يمثّل الخبر البسيط نوعا فرعيا للخبر، إلى جانب الأنواع الأخرى، مشتركا معها في خاصية السّردية، ولأنّ السرد لا حصر له باعتباره حاضرا في كل مكان وزمان، كما لاحظ رولان بارت، إلاّ أنّه لابدّ من التمييز بين الاعتباطي الأكثر تعقيدا، والتّأليفي الأكثر بساطة[2] ، وكون عملية الحكي في أصلها تبدأ من البسيط وتنحو نحو المركّب، فقد عمل المشتغلون بالسّرد على وصف بنية قاعديّة تشكل أساس الحكي، أو لنقل أنّها المراحل الّتي يمرّ بها الحدث عادة في السّرود البدئية البسيطة، والّتي أطلق عليها بـــ (التوازن- خرق التوازن- إعادة التوازن)، وحيث أنّ الخبر وحدة سرديّة بسيطة فيجوز مماثلته بالمتتالية الحكائية البسيطة على نحو ما قدمها ***كلود بريمون*** (***C.Brémonde***)، حيث تمرّ بثلاث مراحل:[3]

1- وضعية "تفتح" إمكانية سلوك ما أو حدث ما.

---

[1] -م ن ، ص 163.

[2] - يراجع: رولان بارت، التحليل البنيوي للقصص، تر:منذر عياشي،ط2، مركز الإنماء الحضاري، سوريا،2002. ص 14.

[3] -Claud Bremond :Logique du récite,Seuil,1973,p32،نقلا عن حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، المغرب، . ص 40.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- الانتقال إلى بداية الفعل بالنسبة لتلك الإمكانية.

3- نهاية الحدث الذي يغلق مسار المتتالية إما بالنجاح أو الفشل.

وكل مرحلة من هذه المراحل لها إمكانيتان: التحقق أوعدمه كما يلي:

المرحلة الأولى: تفتح إمكانية حصول الفعل / لا تفتح إمكانية حصول الفعل

المرحلة الثانية: تحقق الإمكانية / لا تحقق الإمكانية

المرحلة الثالثة: تحقق النتيجة / لا تحقق النتيجة

انطلاقا من هذه الخطاطة سنحاول استجلاء الجانب الوظائفي في الأخبار التي بين أيدينا، ولهذا سنعمد إلى عينات تمثيلية .

- العيّنة (أ)

أ- 1-« قال محمّد بن كعب القرضي: جاء رجل إلى سليمان النّبي عليه السّلام فقال: يا نبيّ الله إنّ لي جيرانا سرقوا إوزّتي، فنادى الصلاة جامعة، ثمّ خطبهم فقال في خطبته: وأحدكم يسرق إوزّة جاره ثمّ يدخل المسجد والرّيش على رأسه، فمسح رجل على رأسه، فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم». (مجلد 1/ ص 234)

أ- 2-« مرّ أبو علقمة ببعض الطّرق بالبصرة فهاجت به مِرّة فسقط ووثب عليه قوم فأقبلوا يعصرون إبهامه ويؤذّنون في أذنه، فأفلت من أيديهم وقال: مالكم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تَتَكَأْكَأون عليَّ كما تَتَكَأْكَأُونَ على ذي جِنَّة، افْرنْقِعُوا عنِّي ! فقال رجل منهم: دعوه فإنّ شيطانه هنديّ، أما تسمعونه يتكلم بالهنديّة ». (مجلد 2/ ص 560)

أ- 3-« عن الحسن: أنّ شابّين كانا متآخيين على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فأغزى أحدهما، فأوصى أخاه بأهله، فانطلق في ليلة ذات ريح وظلمة إلى أهل أخيه يتعهّدهم، فإذا سراج في البيت يزهر، وإذا يهوديّ في البيت مع أهله وهو يقول:

وأشعثُ غرَّهُ الإسلام منِّي خلوتُ بعِرسِه يوم التَّمامِ

أبيتُ على ترائبها ويُضحِي على جرداءَ لاحقةَ الحزامِ

كأنَّ مجامعَ الرِّبلاتِ منها فِئامٌ ينهضونَ إلى فئامِ

فرجع الشَّاب إلى أهله فاشتمل السّيف حتى دخل على أهل أخيه فقتله، ثم جرَّه وألقاه في الطريق، فأصبح اليهود وصاحبهم قتيل لا يدرون من قتله، فأتوا عمر بن الخطّاب فدخلوا عليه وذكروا ذلك له، فنادى عمر في النّاس: الصّلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أنشد الله رجلا علم من هذا القتيل علما إلاّ أخبرني به، فقام الشّاب فأنشده الشّعر وأخبره خبره، فقال عمر: لا يقطع الله يدك. وهدر دمه» (مجلد 4/ ص 402)

- المرحلة الأولى:

انطلاقا من متون هذه الأخبار نلاحظ أنّها تبتدئ بوضعية افتتاحيّة تمهّد للحدث الرّئيسي، أو انفتاح إمكانيّة وقوع الفعل، وهي بمثابة الإيعاز أو الإثارة وهي متنوعة (عقليّة، وجدانيّة، حسيّة)، فقد كانت الإثارة عقليّة عند النّبي سليمان عندما نصب فخا كلاميا لاكتشاف الجاني، وحسّية عن طريق البصر عند القوم الّذين أبصروا سقوط أبي علقمة ليهجموا عليه، ووجدانيّة متعلّقة بالمشاعر والأحاسيس كما عند الشّاب المسلم الّذي حرّكته عاطفة الغيرة على الدّين والعرض لقتل اليهوديّ.

- المرحلة الثانية:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أصبحت الظروف مهيّئة لوقوع الفعل أو الحدث الرئيسي (الخرق)، حيث يمسح السّارق على رأسه في خبر النّبي سليمان، ويهجم القوم على أبي علقمة يعصرون إبهامه ويؤذنون في أذنه، ويهجم الشّاب المسلم على اليهوديّ ويقتله . وهكذا فإنّ حصول الخرق إعلان عن حالة اللاّتوازن الّتي تستدعي إعادته وإصلاح الخرق.

- المرحلة الثالثة:

بمجرّد ما يمسح السّارق على رأسه يكتشف النّبي سليمان سارق الإوزّة، فيشير إليه ويبلغ الخبر غايته، ويتخلّص أبو علقمة من القوم بكلامه الغريب، ويتمّ الكشف عن القتل بوجود جثة الضحيّة ويتمّ الخلاص باعتراف الشّاب مستشهدا بالأبيات، فيثني عليه عمر بن الخطاب ويهدر دمه، وهنا تحدث المفارقة، وأثر الغموض الدّافع إلى التّفكير عند المتلقّي على نحو ما أشار كل من توماتشيفسكي ومونتاندون.

نصل من خلال هذا التّحليل إلى أنّ الخبر متتالية سرديّة بسيطة تنفتح بوضعية معيّنة (توازن) ليحدث فعل يؤدي إلى لا توازن، ثمّ تعود الأمور إلى نصابها بإعادة التوازن وإصلاح الخرق.

ولنا أن نتساءل هنا ماذا لو لم تتحقّق هذه الإمكانات السرديّة؟ ماذا لو لم يحدث الخرق؟ماذا لو لم يكن هناك لا توازن أصلا؟ هل نلغي هذا التّوصيف؟ أم نصف بنية الخبر بعدم الاكتمال ؟

لفت انتباهنا ونحن بصدد استقراء الأخبار الّتي أوردها ابن قتيبة في مصنّفه، أنّها غالبا ما تخرق هذا المسار الذي مرّ معنا، حيث تتوقف عند نقطة معيّنة هي القول أو الكلام، حيث يصبح الحدث أو الفعل الّذي ترتكز عليه بنية الخبر فعل القول،«فالخبر يقوم على استعادة قول مأثور، ونقل حوار طريف بين شخصين»[1]، ليكون الكلام بؤرة الخبر، وهذا ما يتضح من عينة الأخبار التالية:

- العينة (ب)

[1] - محمد القاضي، الخبر في السرد العربي، ص 355.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ب- 1-«قال الشِّعبِيّ: حضرت شُريحًا ذات يوم وجاءته امرأة تُخاصم زوجها فأرسلت عينيها فبكت فقلت: يا أبا أميّة ما أظنها إلاّ مظلومة، فقال: يا شِعبيّ إنّ إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون » (مجلد1/ 106)

ب- 2-«ومن حمقى قريش معاوية بن مروان أخو عبد الملك بن مروان، بينا هو واقف بباب دمشق ينتظر عبد الملك على باب طحّان نظر إلى حمار الطحّان يدوّر الرحى وفي عنقه جلجل، فقال للطحّان: لم جعلت في عنق الحمار جلجلا؟ فقال: ربما أدركتني سآمة أو نعسة فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنّه قام فصحت به، فقال معاوية أرأيت إن قام وحرّك رأسه ما علمك أنّه قائم؟ قال الطحان ومن لحماري بعقل الأمير! » (مجلد 2/ 442)

ب -3-«قال أبو محمد: شُوِيَ لجعفر بن سليمان الهاشميّ دجاج ففقد فخذ من دجاجة فأمر فنودي في داره: من هذا الّذي تعاطى فعقر! والله لا أخبز في هذا التنّور شهرا أو يُرد!فقال: ابنه الأكبر: أتؤاخذنا بما فعل السّفهاء منّا!» (مجلد 3/ 244)

أوّل ما نسجّل على هذه الأخبار أنّها تبتدئ بوضعية سرديّة تفتح إمكانية وقوع حدث ما، فحضور المرأة وبكاؤها وتأثّر الشِّعبي بذلك يفتح إمكانية التّأثير على القاضي والحكم لصالح المرأة، ووقوف معاوية في انتظار عبد الملك يفتح إمكانية وصوله في أيّ لحظة، ولكنّ مسار الوظائف يتوقّف ولا يكتمل عندما يردّ القاضي شُريح على الشِّعبي بجواب صارم مشيرا لما ورد في القرآن الكريم عن إخوة يوسف، وفي هذا الجواب الموجز تكثيف إيحائي واضح، أمّا المرأة الباكية فلم نعلم من أمرها شيئا: فيم خاصمت زوجها ولا ما حكم به القاضي، كما لم ندر إن كان عبد الملك جاء أم لا، ولم كان أخوه "الأحمق" في انتظاره، وماذا عن جعفر بن سليمان هل نفّذ تهديده بعدم الطبخ في التنور شهرا كاملا؟ أم أنّه اكتشف المعتدي على دجاجته "المشويّة"، واسترد فخذها المفقود، لم يورد سارد الخبر شيئا من هذه الإمكانيات لأن بؤرة الخبر تركّزت على الحدث القولي، لا الحدث الفعلي، وهذه خصوصية امتاز بها الخبر البسيط ممّا جعله يفلت من الإجراءات الصارمة الّتي تقترحها النّظريات السّردية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هناك تنويع آخر للخبر البسيط يشدّ انتباهنا في "عيون الأخبار"، فليس هناك لا توازن ولا خرق، بل سرد لحدث، أو فعل مرتبط بشخصية ما، تمارسه بصفة متكررة فيغدو مرتبطا بها، كما يتّضح في أمثلة العينة (ج)

- العينة (ج)

ج- 1-«حدّثني محمّد بن عبيد الله قال: حدّثنا أسامة عن المجالد عن الشّعبي عن عمّه قال: صحبتُ ابن مسعود حولا من رمضان لم يصم يوما واحدا فأهمّني ذلك وسألت عنه، ولم أره صلّى الضّحى حتى خرج من بين أظهرنا» (مجلد 1/ ص 372)

ج- 2-«أبو نعيم عن الأعمش عن يزيد بن حيّان قال: كان عيسى بن عقبة يسجد حتى إنّ العصافير ليقعن على ظهره وينزلن، ما يحسبنه إلا جرم حائط» (مجلد 2/ ص 731)

ج- 3-« الأعمش عن أنس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب» (مجلد 1/ ص 307)

يعرض السّارد هنا أفعالا تتعلق بحياة شخصيات معروفة، وعليه فالبؤرة التي ترتكز عليها هذه الأخبار هي الإخبار عن الكيفية الّتي كانت تُؤدَّى بها تلك الأفعال من قبل الشّخصيات وهذا لا يستدعي المراحل التي مرّت معنا، لأنّ المهمّ في الخبر إبراز حادثة أو سلوك (حسن أو سيء) بغية تركه أو اتِّباعه بحسب المقاصد الّتي يبتغي المصنف تحقيقها وهو ما سنعرض له في موضع آت من البحث، وما يهمّنا هنا هو إبراز تمركز الخبر واهتمامه بالحدث في ارتباطه مع الشخصية، وهو ما يوازي ما قدمه مونتاندون حول النادرة وفروعها.

ركّزنا في تحليلنا هذا على الأحداث والأفعال أو الجانب الحكائيّ للخبر على اعتبار أنّ البساطة تبرز في التّركيز على الحدث الأساسيّ وإهمال التّفاصيل، فحتّى الأشكال الطويلة الأكثر تعقيدا كالسيرة مثلا تخضع للمراحل الثلاث الّتي تحدّثنا عنها، مما يستلزم عدم إقصاء العناصر الأخرى، فالشخصية المفردة –غالبا- في الخبر وانعدام تأطير زماني ومكاني لهما دورهما في تركيز الخبر واختزال بنيته، وانعدام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التفاصيل والجزئيات، وهذا الاختزال يتقدم باعتبار طرائق السرد وصيغه مبدؤنا الأساس في عمل التصنيف.

يُقدَّم الخبر البسيط عن طريق الرّاوي الّذي تنتهي إليه سلسلة الإسناد –غالبا- على نحو ما مرّ معنا في العينات الثلاث، ما عدا خبرا أبا علقمة (أ- 2) والأحمق (ب- 2)، وفي جميع الحالات فإنّ الخبر يقدّمه سارد خارجي شَهِدَ (عاين) الحدث أو اطّلع عليه (القراءة، السماع) ومن ثمّ رواه، أو بوصفه فاعلا له أو مشاركا فيه، ولهذا يتّسع المجال لأصوات الشخصيات ونقل كلامها، إلاّ أنّنا لو تأمّلنا في أخبار العينة (ج) فسنلاحظ أنّ صوت السّارد يهيمن عليها، لأنّ الحكي يتعلق بوصف فعل شخص غائب، أي السرد بضمير الغائب.

أثناء هذا السّرد يختزل السّارد ويتّجه نحو الحدث (بؤرة الخبر) بشكل مباشر،دون حشو للتّفاصيل وأبرزها غياب أوصاف الشخصيات (بل حتى أسماؤها)، وإهمال المؤشّرات الزمانية والمكانية، والسّمة الأساس تجنّب أيّ تكرار من شأنه أن يمطّط الخطاب ويطيله ولهذا وجدنا تواليا في الأفعال على نحو ما تقدّم في العيّنات الثلاث.

نستنتج أنّ البساطة الّتي تميز الخبر من حيث الحدث تعزّزها بلاغة الإيجاز في سرده مما يصحّ معه وصف بنيته بالبساطة الّتي توازي القصر.

1-2-2- الحكاية: ملامح بداية التركيب

ونحن نهمّ بمعاينة النّوع الثّاني للخبر من وجهة (بسيط/مركب)، والّذي نسميّه "حكاية" –استنادا إلى لتقسيم الذي وضعه الباحث سعيد يقطين- يحضرنا تعريف أورده كيليطو للحكاية، يوضّح بجلاء إمكانية الانفتاح والتّركيب الّتي قد تطال أيّ نوع حكائي، يقول: «الحكاية مجموعة من الأحداث (أو من الأحداث السرديّة) تتوق إلى نهاية؛ أي أنّها موجّهة نحو غاية ، هذه الأفعال السردية تنتظم في إطار "سلاسل " تكثر أو تقل حسب طول أو قصر الحكاية، كل سلسلة يشدّ أفعالها رباط زمني

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومنطقي ».[1] تتحدد السّمة الأساس للحكاية من خلال هذا التعريف في الرّباط المنطقي والزمني الّذي يشدّ سلاسلها أما في حالة انعدامه فلن يكون هناك حكاية، بينما عددها؛ أي السلاسل؛ فهو مختلف بحسب طول الحكاية وقصرها، وهذا الوصف الأخير يتنافى والمفهوم الّذي نورده للحكاية في "عيون الأخبار" فعلى الرّغم من تشكلها من مجموعة أخبار إلاّ أنّها لن تخرج عن سمة البساطة بشكل عام.

إنّ تحول الخبر البسيط إلى حكاية يتمّ عبر عمليّات تراكمية على مستوى الأحداث من جهةّ وعلى مستوى الخطاب من جهة أخرى وهو ما يشكّل بنية إطنابيّة.[2]وعليه سيكون حديثنا هنا عن بنية الحكاية تأكيدا لانفتاح بنية الخبر البسيط، ومن ثمّ حديث عن التّقنيات المختلفة الّتي يتم بواسطتها توسيع البنية الحكائيّة للخبر البسيط عن طريق إحداث تراكم على مستوى الأحداث، فاستعادة التّوازن الّتي تمّت على مستوى الخبر البسيط كما مرّ معنا وانغلاق المتوالية ، تُخرق من جديد ويعاد فتح المتوالية على متوالية جديدة، كيف يتم ذلك؟ كيف يخرق الوضع المتوازن من جديد؟ وكيف يرتبط الخبر بالخبر مشكّلا حكاية؟ كل هذا سيتضح من خلال رصد تقنيات الحكي كما تتجلى في ***"عيون الأخبار"***، وهنا سنلجأ إلى عينات تمثيلية، حيث سنكتفي بملخصات ثلاث حكايات بغية الاختصار، مع الإشارة إلى موقعها من المدوّنة حتّى يتسنّى لقارئ البحث الرجوع إلى متونها.

- *الحكاية الأولى: حكاية ملك الهياطلة وفيروز بن يزدجر ملك فارس*[3]

يمكن تلخيص أحداثها في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

- فيروز بن يزدجر يسير بجنوده نحو خراسان لغزو اخشنوار.
- اخشنوار يعلم بذلك فيجمع رجاله للمشاورة.

---

[1] - عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، ص 32.
[2] - حول تشكل بنية الإطناب يراجع: سعيد يقطين، قال الراوي: البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب. ص 25.
[3] - عيون الأخبار، مجلد 1، ص 154.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- تطوّع رجل منهم للإيقاع بفيروز.
- امتحان اخشنوار للرجل للتّأكد من كفاءته.
- نجاح الرجل في الامتحان وانطلاقه لتنفيذ المهمّة.

المرحلة الثانية:

- مبعوث اخشنوار يقف في طريق اخشنوار ويضلّله بخدعة.
- تحذير وزراء فيروز له من كيد الرجل.
- فيروز يخالف التّحذير فيهلك جنوده عطشا.
- فيروز يستسلم ويتعهّد بعدم تجاوز حدود المملكة.

المرحلة الثالثة:

- فيروز يقرر -بعد مدّة- غزو اخشنوار من جديد.
- تحذير وزراءه من عاقبة الغدر والبغي لما في ذلك من العار وسوء المقالة.
- فيروز يخالف التّحذير ويصرّ على الغدر بعهده.
- احتدام المعركة وانهزام فيروز.

تُشكِّل المراحل الّتي حدّدناها لهذه الحكاية مجموعة من المتواليات السرديّة تتّجه نحو نهاية محددة كما في التعريف الّذي مرّ معنا، ونلاحظ أنّها تتشكّل من المراحل الثلاث الّتي رأيناها على مستوى الخبر البسيط، فثمّة خرق للتّوازن وسعي لاستعادته، ففي هذه الحكاية وغيرها من الحكايات يتمّ فتح المتواليات من جديد واختراقها لتبدأ سلسلة جديدة يشدها رباط محكم ووثيق، وهنا تلعب خبرة السّارد دورها، في إقناع المتلقّي بمنطقيّة الأحداث بتوظيفه لمبدأ السببية، فكان يمكن للملك فيروز أن يأخذ بنصيحة وزرائه، أو أن يلتزم بالمعاهدة ويعتبر من مخالفاته السّابقة لتحذيرات وزرائه، ولكن المسافة الزمنيّة كانت كفيلة بجعله ينسى الدّرس الّذي مرّ به، كما أنّ حبّ التّملك والاتّساع في رقعة دولته جعله يصر على الغزو، كذلك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كبرياء وغرور الملوك حال بينه وبين الأخذ بالنّصيحة، وبهذا تنفتح المتوالية من جديد ليحدث الخرق الّذي تهيّأت أسبابه، فنشهد تناوبا لحالات التّوازن واللاّتوازن، فتطول الحكاية وتتحول بذلك إلى قصة أو سيرة، وما هذه الحكاية إلاّ مقتطفا من سيرة ملوك العجم، وهو ما يشهد به الإسناد الذي يقدمه بها ابن قتيبة « قرأت في سير العجم أنّ فيروز بن يزدجر بن بهرام لمّا ملك سار بجنوده...»، فهو يحيل على المصدر أو المرجع (الكتاب- القراة)، وعلى النوع من جهة أخرى (السّير).

إنّ التأمل في أحداث هذه الحكاية يجعلنا نميّز بين أحداث أساسيّة، وأخرى ثانويّة، ولنمثل عن هذه الأخيرة بإخضاع اخشنوار الرّجل المتطوّع للامتحان، فهو حدث مكمِّل للأحداث الأساسيّة، وتجسيد لبداية التّراكم على المستوى الحكائي،«وحصول هذا التّراكم لا يعني التّوظيف المجّاني بهدف الإطناب أو التّطويل لإثارة القارئ كما يزعم البعض. إن الراوي وهو ينتقل في الزّمان والفضاء ينقلنا من حدث إلى آخر مختلف تماما يشغّل تقنيات هائلة (...) وهو في كل هذه الحالات يمسك بخيط الحكي بمهارة وصرامة»[1].

وعلى هذا الأساس فكل فعل وكل شخصية وكل ما يرد أثناء الحكي له دوره في البناء، ففي توظيف الشخصيات نميّز فواعل رئيسية (فيروز، اخشنوار) وفواعل ثانويّة مساندة أو معارضة للفاعل الرّئيسي(المتطوع، الوزراء، الجنود) وكل هذه الشّخصيات بما تؤدّيه من أفعال تتحرّك في فضاء زماني ومكاني محددين بواسطة مؤشرات عديدة على مستوى الخطاب.

نستنتج من معاينة الأحداث أنّها تسير في مسار خطيّ تتحقّق معه إمكانيّة فتح المتواليات السرديّة وتوالد الحكي، وسمة الخطيّة هذه ينجم عنها تكرار الوظائف والأفعال (الخرق)، كما قرر ذلك فلاديمير ***بروب*** (***Vladimir Propp***) في نموذجه الوظائفي الشهير[2]، فبمجرّد استعادة التّوازن حتّى يتم خرقه مجددا، وهكذا إلى أن

[1] - سعيد يقطين، قال الراوي، ص 30.
[2] - يراجع: فلاديمير بروب، مورفولوجيا القصة، تر: عبد الكريم حسن وسميرة بن عمو، ط1، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 1996.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقرّر السّارد أنّ النهاية قد حانت، بما يتوافق وشعور المتلقي أنّه أمام بنية أحداث تامة.

هذا التّركيب على مستوى الأحداث يعضده تركيب على مستوى الخطاب، فلولا فعل السّرد الّذي يضطلع به القائم بالسّرد، لبقيت الأحداث في عالم الممكنات. وقد لاحظنا أنّ هذه الحكاية مقدّمة بصوت سارد خارجي عارف بكل شيء، ولكنه يفسح المجال للشخصيات لتقديم خطابها المباشر، كما يتجلّى في الامتحان الكلامي الّذي اختبر به اخشنوار كفاءة الرجل المتطوع(الحوار)، وكما يظهر في نصيحة الوزراء لفيروز(الالتماس)، وكذلك في وعظ اخشنوار لفيروز قبيل المعركة (تذكير ونهي)، فهذا التّداخل على مستوى الأصوات والخطابات من شأنه تمطيط الخطاب و تركيبه.

نستنتج من تحليل حكاية الملك فيروز و اخشنوار أنّ الأحداث تتراكم وتنمو نموا أفقيا يشدّها رابط سببي وزمني، ويقابل هذا النّمو الأفقي نموٌّ عمودي على مستوى الشّخصيات والفضاء الزماني والمكاني معزّزا بتداخل الأصوات والخطابات على مستوى الخطاب.

إنّ سمة التّسلسل الخطي هذه ليست الخاصية الوحيدة في حكايات "عيون الأخبار"، فثمّة نماذج أخرى تمتاز بالتّداخل وتكسير هذه الخطيّة، وهو ما يقدّمه النموذج الثّاني.

- ***الحكاية الثانية: حكاية النبي عزير والمدينة***[1]

نلخّص أحداثها كما يلي:

- النبي عزير يناجي ربّه جزعا على ما حل بمدينة إلياء وأهلها من ذل وهوان
- ظهور امرأة تبكي وسؤال النبي عزير عن سبب جزعها
- المرأة تحكي قصتها:

[1] - عيون الأخبار، مجلد 2، ص 653.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- كانت امرأة ذات شرف ومال ولكنها عاقر
- انصراف زوجها عنها إلى ضرائرها وأولاده
- دعاء المرأة الله أن يرزقها ولدا
- استجابة الدعاء والرزق بالولد
- الولد يكبر ويموت
- المرأة تعود إلى أسوأ حال فتخرج للبريّة جزعة على حالها.
- عزير يصبّر المرأة على مصابها ويذكر لها مصيبة مدينة إلياء
- المرأة تتحول إلى مدينة حصينة عالية الأسوار
- عزير يصعق لهول ما رأى
- حضور ملك لإنعاش عزير
- الملك يفسر حكاية المرأة:
- المرأة الّتي كلمتك هي المدينة التي تبكي عليها
- عقر المرأة يقابله خراب إلياء قبل أن يعمرها الله
- هبة المرأة غلاما عند اليأس يقابله تعمير الله المدينة وابتعاث الرسل والأنبياء وإنزال الكتاب
- هلاك الولد يقابله تبديل أهل المدينة نعم الله جحودا وعصيانا، فغضب الله عليهم بتسليط عدوهم عليهم.
- الملك يبشر عزير بشفاعته في قومه عند الله وإعادة إعمار المدينة

نتبيّن من خلال ملخّص الأحداث أعلاه أنّ ثمة حكاية إطارا هي حكاية عزير وجزعه على مدينة إلياء وتحوّلها من حال إعمار وازدهار إلى حال خراب وفناء، فثمّة وضعية لا توازن (تسليط الله العدو على أهل المدينة بما اقترفوا من معاصي)، وهنا يمثل فعل التّضرع والمناجاة محاولة لإعادة التوازن وإصلاح الخرق، حيث

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يبتدئ السّرد بصوت خارجي (الراوي وهب بن منبه) لا تتعدّى وظيفته السرديّة نقل كلام الشخصيات، حيث يتمّ نقل الأحداث على لسان الشخصيات الثلاث (عزير، المرأة، الملك)، وهنا سنكون إزاء تلفّظ مباشر، في حين بقى صوت الراوي خافتا، لا يظهر إلا في عبارات(قال، قالت...).

إنّ حالة اللاّتوازن الّتي تشهدها الأحداث تنعكس على نفسية النبي عزير، الذي يشعر بالضعف والخذلان فيلجأ إلى ربّه مناجيا، وحتى تستعاد حالة التّوازن للمدينة والنبي لابدّ من حدوث معجزة وخرق قوانين الطبيعة، وهذا ما يمهد له بإدخال شخصية أخرى في مسار الحكي، وهي المرأة الّتي ظهرت حاسرة الرّأس باكية، ممّا يثير النبي لتعزيتها بالعودة إلى الله عز وجلّ « فإنّ في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفا من كلّ هالك وعوضا من كلّ فائت فإياه فاستعيني وإلى نظره لك فانظري»، بهذه الكلمات يتم تحفيز المرأة على الحكي؛ وهنا انطلاقة لمسار أحداث آخر(تضمين)، حيث تبدأ حكاية المرأة بوضعية افتقار (العقر)، الّذي يتمّ تعويضه عن طريق الدّعاء والتّضرع إلى الله، فترزق بولد ما يلبث أن يكبر ثمّ يموت فتعود الحال أسوأ ما كانت عليه، وتخرج المرأة هائمة على وجهها تبكي، وفي هذه النّقطة من الحكي يتمّ الرّجوع إلى الحكاية الإطار، فيواصل عزير تعزيته لها بالنظر في مصائب الآخرين، ممثلا لها بمصيبة مدينة إلياء، وفجأة تتحول المرأة وتحدث المعجزة فتظهر مدينة حصينة فيصعق عزير لهول الحدث، وبهذا الحدث العجيب يستعاد التّوازن، وهنا تتدخل شخصية ثالثة (الملك) تقوم بالربط بين الحكاية الإطار والحكاية المضمّنة، عن طريق خطاب التفسير، كما وضّحنا أعلاه.

نصل في نهاية هذا التحليل إلى وصف التّركيب الحاصل على مستوى بنية الحكاية بأنّها بنية تضمينيّة متوازية، فنحن إزاء حكايتين تتعلق كل منهما بشخصية تسرد حكايتها، وتمثل إحداهما رمزا للأخرى ولا يتبيّن التّعالق بينهما إلاّ بإدخال شخصيّة ثالثة تؤدي سردا تفسيريًّا، وبهذا تنمو بنية الحكاية أفقيا وعموديا، حيث أنّ تراكم الأحداث يوازيه تراكم الشخصيات والأزمنة والأمكنة، وتعدّد في الأصوات والخطابات.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نخلص إلى أنّ الحكاية بوصفها نوعا للخبر تمثل بداية التّركيب عن طريق تراكم الأخبار البسيطة، وأنّها منفتحة وقابلة للتّركيب والإطناب لتشكيل بنية أكبر، ومن ثمّ شكلا أطول (قصة أو سيرة)، إلا أنّها تتميز عن الخبر البسيط بتوالد الأحداث وتعدّد الشخصيات والأزمنة والأمكنة، وبالإطناب بذكر التفاصيل على مستوى الخطاب، إلاّ أنّها تبقى متمركزة على الحدث الرّئيسي الّذي يمثل بؤرة الحكي.

نصل في نهاية هذا المبحث إلى أنّ للخبر نوعين أساسيين هما: الخبر البسيط والحكاية، بالنّظر إلى بنياتهما البسيطة والمركّبة، حيث تؤسّس هاتين الخاصيّتين لثبات هذين النّوعين، ولكن ما نلبث أن نلاحظ أنّ هذا التصنيف شديد الاختزال لتنويعات فرعيّة شديدة، وهذا ما سيتّجه المبحثان اللاّحقان لاستجلائه عن طريق النّظر من زوايا أخرى سعيا للإلمام بالتّنويعات الّتي تنبثق عن شكل الخبر في ***"عيون الأخبار"***.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- أنماط الخبر: الواقعي/اللاّواقعي

إذا كان البحث في البنيات يؤدّي إلى تصنيف للأنواع بشكل عمودي، فإن ثمّة ما يجمع هذه الأنواع على صعيد أفقي، وهو ما يتعلّق بالأنماط ، وقد تمّ الحديث عن الأنماط في الأدبيات الغربيّة منذ أفلاطون وأرسطو، حيث تحدّدت النّمطيّة بالطّريقة الّتي يتم بها التّعامل مع الواقع. فكان الحديث عن الواقعي والتّخييلي والتّخيّلي.

كثيرا ما تتعالق في التراث ثنائية الواقعي/اللاواقعي بثنائية أخرى هي الحقيقة/اللاحقيقة المستندة إلى ثنائيّة أخرى الصّدق/الكذب، هذه الأخيرة الّتي كانت بمثابة معيار نقدي، تمّ بموجبها الحكم على انتماء الكلام، وتصنيفه كما سنرى فيما يأتي من عرض لمختلف الآراء حول المسألة.

2-1-وجهات نظر

2-1-1- النظرة التّراثية لنمطيّة الخبر: بين الصدق والكذب

يقدم ابن قتيبة في مقدمة كتابه ***"أدب الكاتب"*** التّصنيف التّالي للكلام:«والكلام أربعة: أمرٌ وخبرٌ واستخبارٌ ورغبة، ثلاثة لا يدخلها الصِّدق والكذب، وهي: الأمر والاستخبار والرغبة، وواحد يدخله الصِّدق والكذب وهو الخبر»[1]، نلاحظ من خلال هذا التّصنيف أنّه يحتكم إلى صيغة الكلام وشكله الّتي ترتبط بثنائية الصّدق والكذب، وهكذا يضع الخبر في خانة ذات احتمالين؛ إمّا صادق وإمّا كاذب؛ على عكس نظيره الحديث (الأمر والاستخبار والرّغبة) الذي يعتبر صادقا مطلقا، هذا الكلام يذكرنا بالتقعيد البلاغي الكلاسيكي حو الإنشاء والخبر، بوصفهما أسلوبين للكلام.

سنلاحظ أنّ هذه النظرة "الارتيابيّة" حول صدق الخبر، كانت مسلّمة في التّراث فكيف السّبيل إلى الأخبار الصّادقة؟ ستتّجه المسألة إلى التحقيق إذا وهنا نجد

[1] - ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص 7.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المشتغلين بالأخبار، ينحون نحو المشتغلين بتدوين الأحاديث النبوية الشريفة، وهذا ما يعكسه طرفا الخبر: السند والمتن، وهنا نستحضر أوصافا وشروطا حددها الجاحظ في "***رسالة المعاد والمعاش***" لنقل الأخبار وقبولها، وهي:

- ***خبر عام متواتر***: تنقله جماعة يستحيل إجماعها على الكذب، فهو صادق «فما غاب عنك ممّا قد رآه غيرك، ممّا يدرك بالعيان، فسبيل العلم به الأخبار المتواترة التي يحملها الوليّ والعدوّ والصّالح والطّالح المستفيضة في الناس فتلك لا كلفة على سامعها من العلم بتصديقها، فهذا الوجه يستوي فيه العالم والجاهل»[1]

- ***خبر خاص***: ينفرد بروايته شخص موثوق فلا شك في صدقه« وقد يجيء خبر أخص من هذا، إلاّ أنّه لا يعرف إلا بالسّؤال عنه والمفاجأة لأهله، كقوم نقلوا خبرا، ومثلك يحيط علمه أنّ مثلهم في تفاوت أحوالهم وتباعدهم من التعارف لا يمكن في مثله التواطؤ، وإن جهل ذلك أكثر الناس، وفي مثل هذا الخبر يمتنع الكذب ولا يتهيأ الاتفاق فيه على الباطل»[2]

- ***خبر خاص***: «يحمله الرّجل والرّجلان ممن يجوز أن يصدق ويجوز أن يكذب، فصدق هذا الخبر في قلبك إنّما هو بحسن الظّن بالمُخبِر والثقة بعدالته، ولن يقوم هذا الخبر من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين الأوّلين»[3]

وعلى هذا الأساس سيكون التّمييز بين أنماط الكلام الكاذب والصادق بالنظر إلى قائله ومتلقيه، كما نرى عند ابن وهب الّذي يعتبر هذه الثنائية معيار فصل بين كلام الخاصّة ومجالسهم الّتي ترتبط بالصدق المطابق للحقيقة، ومجالس العامة الّتي تتميّز بالكذب وتجانب الحق، مع إشارته إلى أنّ الخاصة قد تلجأ إلى الكذب لضرورات تتمّ بها منفعة أو فائدة، وهنا يرتقي هذا الكذب درجة بين الدرجتين: بين صدق الخاصة وكذب العامة.[4]

من خلال هذا التصنيف الذي يطرحه ابن وهب، سنجد أنّ الخبر يتفرع إلى:

---

[1] - الجاحظ،رسائل الجاحظ(الرسائل السّياسيّة)،تحقيق علي أبو ملحم، دط، دار مكتبة الهلال، بيروت، 2000. ص 73.
[2] - م ن، ص ن.
[3] - م ن، ص ن.
[4] - ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 217.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الخبر الصادق: مطابق للحقيقة والواقع
- الخبر الكاذب: مجانب للحقيقة والواقع (اللاواقعي)
- الخبر المختلط: مقلّد للواقع

يمكن القول أنّ ثنائية الصدق والكذب كانت محدّدة لنمط الكلام النّثري، أو لنقل الخبر مادام الحديث(الإنشاء) صادق مطلقا.

2-1- 2- طه حسين بين الصدق/الواقع و السّخيف/ اللاواقعي

أماّ في الدّراسات الحديثة فقد استبدلت هذه الثنائية، أو بالأحرى تغيّرت وجهات النّظر فلم يعد ضروريا التّحقق من واقعية هذه الأخبار، هل حدثت فعلا؟ هل عاشت شخصياتها؟ وكان طه حسين من أوائل من بادر بطرح هذا النّوع من الأسئلة، عندما عاد إلى التّراث، وهمّ بدراسة أخبار الشّعراء الغزليّين، حيث تساءل عن جدوى البحث في مرجعيّة شخصيّة المجنون وجميل وقيس...وهل وجدت تاريخيا، إنّه يزيح من طريقه هذه العقبة، عقبة التّحقيق التّاريخي، لأنّها ليست مهمة "الدّارس الأدبي" إنّما مهمة "المؤرخ"، أمّا الأوّل فهو معني بدراسة هذه الأخبار باعتبارها فنا قصصيا، يقول: « وأنا أريد أن أقيم مكان قيس بن الملوح و قيس بن ذُرَيح وجميل بن معمر وعروة بن حزام، أشياءً لا أشخاصا، أو بعبارة أدق، أريد أن أقيم مكانهم شيئا واحدا هو فنّ القصص الغرامي الذي أعتقد أنّه ظهر، أو على أقلّ تقدير قوي وعظم أمره أيّام بني أميّة(...) أنا إذا بإزاء قصص غراميّة اخترعها الخيال، لا بإزاء عشّاق، فإذا أردت أن أبحث فلست أبحث عن هؤلاء العشّاق فهم لا يعنونني، وإنّما أبحث عن واضع هذه القصة، وقيمته ومقدرته في الشّعر والنّثر، أبحث عن هذا الفن الأدبي»[1].

لنتأمّل هذا الوعي المبكر-كتبت هذه الدّراسات ونشرت لأوّل مرّة سنة 1925-عند طه حسين للعودة إلى التّراث لا إحياءً واتّباعا -كما فعل بعض معاصريه-، بل للنّظر إليه في وجهه الثّاني النّثر، بعد أن هيمن الشعر طويلا، بل أنّ الناقد يريد النظر بشك فيما اعتبر مسلّمة، وعليه تصير الحقيقة مجرد "خيال" و

[1]- طه حسين، حديث الأربعاء، ج1، ط 11، دار المعارف مصر، 1975. ص 182.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"اختراع"، وأنّ الخبر الّذي كان مجرد حامل للشّعر، اكتسب كيانا (فن القصص الغرامي) يسمح بانخراطه في منظومة الأنواع الأدبية.

يقدّم طه حسين إذا قراءة في أخبار كل من المجنون وجميل بن معمر وقيس بن ذريح، وتجدر الإشارة إلى أن هذه القراءة محكومة بسياق ثقافي-معرفي مخصوص للنّاقد الّذي تشكّلت لديه خلفيّة معيّنة عن بناء القصص الغراميّة الغربيّة، فراح يقيس عليها أخبار هؤلاء العشّاق الشّعراء، وقد صرّح أنّه لا يريد الارتحال إلى عصر بني أميّة، سيقرأ التّراث من موقعه بوصفه إنسانا يعيش في القرن العشرين، ولهذا يسخِّف قصّة المجنون كما وردت في كتب الأخبار ويخص ما ورد في "الأغاني"، ويصف واضعها بقلّة الحيلة و اللاّمنطقيّة، إذ ينتقد طريقة تشكيل شخصيّة البطل«فلست تجد في هذه القصّة يبين لك شخصيّة هذا الرجل الذي اتخذ لها بطلا »[1]واللّوم سيقع على منشئ هذه القصّة وخياله القاصر«فمن الخير أن يخترع الكاتب وأن يتخيّل ولكن من الحق عليه أن يجتهد في ألاّ يكون خياله سخفا واختراعه محالا، ذلك أنّه يتعرّض بهذا إلى أن يكذّبه الناس و يسخروا من خياله، وقد سخر النّاس من واضع قصّة المجنون وكذّبوه، فقد ذكرت لك أنّ الثقاة من الرواة ينكرون وجود المجنون أو يشكّون فيه أو يختلفون في أمره اختلافا عظيما»[2]، وهنا نلاحظ من كلام الناقد أن قبول أو رفض قصة أو خبر أو شعر، يتم استنادا إلى معيار "الألفة"؛ أي بالنّظر لعلاقة النّوع الأدبي بالتّجربة اليوميّة، وعليه الاحتكام إلى مدى واقعيّة وصدق الخبر.

يبدو أنّنا نتّجه شيئا فشيئا نحو قضية الواقعيّة في الأدب، والّتي شغلت حيزا هامّا في الدراسات الغربيّة الحديثة، وما أحدثه المذهب الواقعي في رواية القرن التاسع عشر، ولسنا نرغب في الخوض في المسألة لأنها ستنحرف بنا عن السبيل الّتي رسمناها لهذا المبحث، والمتعلّقة بالنّظر في مستوى الواقعي واللاّواقعي في الخبر، وهنا لامناص من النّظر في بعض آراء ووجهات النّظر الغربيّة الّتي تناولت هذه الثنائية.

[1] - طه حسين، حديث الأربعاء، ج1،ص 198.
[2] - م ن، ص 199.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2-1- 3- رولان بارت: الواقعي بين التّاريخ والمحتمل

من النقاد الغربيين الّذين تعرّضوا لبحث العلاقة بين الأدب (السردي بشكل خاص) والواقع نجد رولان بارت في مقالين هما: " خطاب التّاريخ" و " أثر الواقع"، حيث يقارب الواقعي والتّاريخي والتخيّلي، من خلال تمثّل نموذجين للسرد هما السّرد التّاريخي والسّرد الأدبي، معتبرا الأول محكيّا واقعيا والثاني تخيليا، متسائلا عن الاختلاف الجوهري بين النّوعين:«هل يختلف هذا السرد فعلا ببعض السّمات الخاصّة، و بملاءمة أكيدة عن السّرد المتخيّل كما يمكن أن نجد في الملحمة، وفي الرّواية، وفي الدراما؟»[1]، خطاب التّاريخ في نظر بارت واقعي و حقائقي ، وعليه فإنّ «للخطاب التّاريخي وضعا تأكيديا و إثباتيًّا موحّدا، وما كان ذلك كذلك إلاّ لأنّ الحدث التاريخي، حدث يرتبط لسانيًّا بامتياز الكينونة، فنحن نروي ما كان، وليس ما لم يكن أو ما كان مشكوكا فيه»[2]، وهكذا يرسخ الاعتقاد بموضوعيّة الخطاب التّاريخي.

يشرح بارت علاقة السّرد التّاريخي بالواقع ممثّلا بالعلاقة بين الدّال والمدلول والمرجع لسانيًّا، يقول:«وعندما يرفض التّاريخ أن يأخذ الواقع بوصفه مدلولا فإنّنا نفهم أنّ التاريخ في ذاته قد جاء وذلك في اللّحظة المفضّلة الّتي حاول فيها أن يبني نفسه جنسا، أي في القرن التّاسع عشر، وأن يرى في علاقة الوقائع بكل بساطة، أفضل دليل على هذه الوقائع، وأن يؤسّس السّرد بوصفه دالاً للواقع»[3]، هذا المدلول هو ما يسميّه بارت "أثر الواقع".

و"أثر الواقع" عنوان لمقال آخر عاين فيه بارت؛ من خلال كتابات فلوبير السرديّة؛ التقنيّة الّتي يتجلّى من خلالها أثر الواقع في الأدب ألا وهي الوصف الّذي كان يؤدّي في فترة ما وظيفة محض-بلاغيّة (تزينيّة)، ولكنّه في القرن التّاسع عشر صار يؤدّي وظيفة الإحالة على المرجع، على الواقع، وهكذا يجعل القارئ "يظن" أنّه أمام وقائع وأحداث وقعت فعلا، وعليه فإنّ «الوصف الواقعي إذ يجعل من المرجع

[1] - رولان بارت،" خطاب التاريخ"، هسهسة اللغة، تر: منذر عياشي،دط، مركز الانماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر، سوريا،دت.ص 192.
[2] - م ن، ص 201.
[3] - م ن، ص208.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واقعيا، ويتظاهر باتّباعه على نحو عبودي، فإنّه يجنّب نفسه مغبّة الانسحاب إلى نشاط استيهامي»[1]، و الاستيهام هو الاعتقاد بحقيقة الوهم والّذي يحدث في الأدب التخيّلي وحسب.

يرى بارت أنّ "الواقع" كان يقف منذ القديم بجانب "التاريخ" معارضا "المحتمل"، ليخلص إلى كون«الأدب الواقعيّ بكل تأكيد أدب سرديّ ولكن يكون فقط لأنّ الواقعيّة مجزّأة في ذات نفسها وتائهة ومحبوسة على التّفاصيل و إنّها لتكون كذلك، لأنّ القصّة الأكثر واقعيّة، كما يمكن للمرء أن يتصوّر، إنّما تتطور بحسب طرق غير واقعيّة، وهذا هنا هو ما يمكن أن نسمّيه الوهم المرجعي».[2]

يحاول بارت من خلال هذا التصوّر إعادة تأسيس مفهوم الواقع، حيث يجعله مرتبطا بما هو تاريخي، باعتبار التاريخ يحكي ما وقع فعلا وفي مقابل ذلك يضع التخييلي المتعلق بالأدب الواقعي، ويشير إليه بـــ"المحتمل"، وعليه تكون الواقعيّة في علاقتها بالسّرد لا تخرج عن إطار التّخييلي العام الّذي يُمرّر فيه الموضوعيّ (الواقع) عبر الذاتيّ (شخصيّة المؤلف)، فيفقد كثيرا من مصداقيّته و إن كان يوهم بها، وهنا تجدر الإشارة إلى القاعدة الّتي يبتغي بارت تأسيسها وهي أنّ التاريخ وحده يتحمّل مسؤوليّة تسجيل الواقع، أمّا الأدب فلا يحمل إلاّ أثر الواقع.

إذا كان بارت -كما تقدّم- قد اهتم بالطرف الأوّل من الثنائيّة (الواقعي/ اللاواقعي) الّتي جعلناها مدار التّصنيف في هذا المبحث، فإنّ باحثا آخر اتّجه نحو الطرف الثاني وبحث في كل ما يخرج عن الواقع "الأليف" إلى "الغريب" و"العجيب"، وهو تودوروف في عمله الموسوم "مدخل على الأدب العجائبي".

2- 1- 4- تزفيتان تودوروف: اللاّواقعي بين العجيب والغريب

يشتغل ***تزفيتان تودوروف*** في كتابه ***"مدخل إلى الأدب العجائبي"*** على نوع من السّرد يناقض تماما السّرد الّذي اشتغل عليه بارت من خلال مقاليه المذكورين، فهو يهتمّ بالتخيّلي الّذي يقع مقابلا للواقعي، إذ لا يتحدّد العجائبيّ إلاّ بالنّسبة لهذين

[1] - "أثر الواقع"، م ن، ص 215.
[2] - رولان بارت،"أثر الواقع"، ص 217.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المفهومين، يقول تودوروف:«..فالعجائبي هو التردّد الّذي يحسّه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعيّة، فيما يواجه حدثا فوق-طبيعي حسب الظّاهر، إنّ مفهوم العجائبيّ يتحدّد إذن بالنّسبة إلى مفهومي الواقعي والمتخيّل»[1] هذا التردد الّذي أشار إليه يعتري القارئ الّذي يتوحّد مع الشخصيّة، وعليه لابد من أن يقرّر أو يختار أحد التّأويلين« فإذا قرّر أنّ قوانين الواقع تظلّ غير ممسوسة وتسمح بتفسير الظواهر الموصوفة، قلنا إنّ الأثر ينتمي إلى جنس آخر:الغريب. وبالعكس إذا قرر أنه ينبغي قبول قوانين جديدة للطبيعة، يمكن أن تكون الطبيعة مفسّرة من خلالها دخلنا عندئذ في جنس العجيب»[2].

نلاحظ أنّ تودوروف يقترح هنا تصنيفا للنوع التّخيُّلي، حيث يحدد نوعين رئيسيّين هما: الغريب والعجيب، وتفريعاتهما، وهذا ما وضحه بالجدول التالي:[3]

غريب محض	عجائبي-غريب	عجائبي-عجيب	عجيب محض

أمّا العجائبي الخالص فهو يقع بين العجائبي الغريب والعجائبي العجيب، ولم يخصص له خانة لأنّه لا يدوم إلاّ «زمن تردّد: تردّد مشترك بين القارئ والشخصيّة»[4].

يبدو من خلال هذا التّصنيف أنّ تودوروف اشتغل على المحكيّ التخيّلي دون أن يتجاوزه إلى الواقعي، فصنّفه إلى محكي يقارب الواقع فهو"الغريب"، ومحكي لا يقارب الواقع فهو "العجيب".

إنّ محاولة تقريب زوايا النظر هذه والجمع التنسيق بينها من شأنه أن يعطي تصورا متكاملا بصدد نمطيّة في تصنيف الأنواع الخبريّة، وهذا ما نجده فعلا في اقتراح سعيد يقطين، الّذي يبدو أكثر مرونة وإلماما.

2- 1- 5-سعيد يقطين: الخبر بين الواقعي والتخيّلي

[1] - تزفيتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، ط1، دار شرقيّات، مصر، 1994. ص 44.
[2] - تزفيتان تودوروف، مدخل لإلى الأدب العجائبي، ص 57.
[3] - م ن، ص 59.
[4] - م ن، ص 57.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ينطلق سعيد يقطين في تحديد أنماط الخبر من زاوية علاقته بالتجربة، كما يلي:[1]

أ- ***الخبر= التجربة:*** عندما يكون الخبر موازيا للتجربة، نكون بصدد الأليف واليوميّ والواقعي الذي يتساوى كل النّاس في إدراكه وتمثله.

ب- ***الخبر> التجربة:*** عندما يصبح ما يقدمه لنا الخبر يفوق أو يوازي التجربة نصبح أمام عوالم جديدة تتميّز بغرابتها عمّا هو أليف وتنزاح عمّا هو متداول ويوميّ. إنّ هذا الانزياح يجعلنا في منطقة التّماس بين ما هو واقعي وما هو تخييلي.

ج- ***الخبر< التجربة***: وعندما يتجاوز الخبر التجربة ويفوقها، يتمّ خلق عوالم جديدة تقوم على "التخيّل" وذلك من خلال اختراع أشياء لا حقيقة لها بخروجها عن عوالم التجربة الواقعيّة العاديّة.

على هذا الأساس تتحدد ثلاثة أنماط للخبر كما يقدمها يقطين:

1- الأليف: الواقعي

2- الغريب: التخييلي

3- ***العجيب: التخيّلي***

سنسعى من خلال هذا الطرح إلى تبيّن أنماط الخبر مهما كان نوعه(خبر بسيط، حكاية) كما تتجلى في "عيون الأخبار".

2-2-أنماط الخبر في "عيون الأخبار": من الأليف إلى العجيب

ننطلق من افتراض توفر الأنماط الثّلاثة للخبر في "عيون الأخبار" مع تفاوت أكيد في نسب ورودها، كما نفترض وفقا للتّقسيم الّذي رأيناه عند ابن وهب أنّ هذه الأخبار تتدرج في الأخبار الصادقة مطلقا، أو المختلطة؛ بمعنى الكاذبة ذات الهدف الحق، هذا الحكم يتمّ الاستناد فيه لشخصيّة المصنّف(ابن قتيبة) وما كانت له من مكانة

[1] - سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 199.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علميّة وخلفيّة معرفيّة دينيّة، فهو من علماء التّفسير للقرآن والحديث، وبالتّالي ترتبط بالأبعاد والمقاصد والّتي سيأتي تفصيلها في المبحث الموالي.

نلاحظ على صعيد آخر التأكيد على رابطة السّند الّتي كثيرا ما يعتمد عليها ابن قتيبة في إيراد هذه الأخبار، وهنا نستحضر شروط قبول الأخبار الّتي حدّدها الجاحظ آنفا الّتي يبدو أنّ ابن قتيبة يخرج عنها في "عيون الأخبار"، بعدم اكتراثه بهويّة المرويّ عنه أو المأخوذ عنه، مادام المنقول (حديثا كان أو خبرا) يؤدي فائدة، وتحصل به المنفعة، يقول معلّلا مصادر أخذه:« واعلم أنّا مازلنا نلتقط هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمّن هو فوقنا في السِّن والمعرفة وعن جلسائنا وإخواننا، ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم، وعمّن هو دوننا غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنًّا لحداثته ولا عن الصغير قدرا لخساسته و لا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلا عن غيرها، فإنّ العلم ضالّة المؤمن من حيث أخذه نفعه...»[1] ، فالحق والصّدق لصيقين بالخبر الّذي يورده ابن قتيبة بغضّ النّظر عن قائله، ولا عن مطابقته للواقع مادامت المنفعة قائمة، كما أنّ ابن قتيبة واع للمجال الّذي يشتغل فيه وهو مجال الآداب والأخلاق(محاسن أو مساوئ) وليس مجال الفقه وعلم الحلال والحرام، يقول محتجّا لرأيه هذا: «حدّثني أبو الخطاب قال: حدّثنا أبو داود عن سليمان بن معاذ عن سماك عن عكرمة عن ابن عبّاس قال:"خذوا الحكمة ممّن سمعتموها منه، فإنّه قد يقول الحكمة غير الحكيم وتكون الرّمية من غير الرّمي"، وهذا يكون في مثل كتابنا لأنّه في آداب ومحاسن أقوام ومقابح أقوام والحسن لايلتبس بالقبيح ولا يخفى على من سمعه من حيث كان، فأمّا علم الدّين والحلال والحرام فإنّما هو استعباد وتقليد لايجوز أن نأخذه إلاّ عمّن تراه لك حجّة ولا تقدح في صدرك منه الشّكوك، وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين...»[2]، كما تجدر الإشارة هنا إلى أنّ مفهوم الحقيقة في الثقافة الإسلاميّة لا يعني مطابقة الواقع كما رأينا عند بارت(الواقع التّاريخي) أو تودوروف(قوانين الطّبيعة)، ولكنها تتكئ على مبدأ التّصديق النّابع من الإيمان، وهنا تجد أحداث لا واقعيّة من ناحية العقل،

[1] - عيون الأخبار،مجلد 1،ص 42.
[2] - م ن، مج1،ص 42.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تفسيرا وقبولا على أنّها حقائق كما هو الحال بالنسبة للغيبيّات، «ذلك أنّ الحقيقة في الإسلام أوسع من حدود الواقع الحسّي. فالإيمان –في الإسلام- يقتضي الاعتقاد بوجود كائنات ذات طبيعة مغايرة لطبيعة البشر، قد لا تقبل الانقياد إلى قوانين التّجربة الحسيّة، مثل الملائكة والجان»[1]. ويبقى على متلقي الخبر التّحقق من صدق الرّاوي أو الناقل للخبر.

وإذ أطنبنا في إيراد هذه الشّواهد هنا فإننا نبتغي التّأكيد على الخصوصيّة الّتي يتّخذها الواقعي واللاّواقعي في تصنيف الأخبار الواردة في " عيون الأخبار". وهذا ما سيتّضح من خلال استقصائنا للأنماط الثّلاثة المحددة آنفا.

2- ***2- 1- الخبر الأليف***:

استنادا إلى الاقتراح المقدّم آنفا، فإنّ الخبر الأليف هو كل خبر يضطلع بتقديم حدث يوازي التّجربة اليوميّة الواقعيّة، إذ يخلق الخبر ألفة لدى المتلقي، فلا يشعر بـــ"الغرابة" ولا بـــ"العجب" لأنّ كل شيء يبدو طبيعيا و مألوفا.

وعليه نفترض ابتداء أنّ القارئ سيكون أمام:

- واقع منقول ←—— التّاريخ

- واقع محاكى ←—— المحتمل

إنّ المتأمّل في "عيون الأخبار"، سينتبه بسهولة إلى أنّ السّواد الأعظم من الأخبار الّتي جمعها ابن قتيبة ودونها، يندرج ضمن هذا النّمط، وعندما نشير هنا إلى النّقل الحرفي للواقع أو "التاريخ"، فلا نقصد اهتمام المؤلّف بعمليّة التّأريخ للأحداث، لأن عمله كان ينحى منحىً آخر ألا وهو"الأدب"، وهذا ما يجعله مختلفا عن معاصره وابن بيئته أبي حنيفة الدّينوري الّذي وضع "الأخبار الطوال"، والّذي يعدّ مؤلّفا تاريخيا محضا، وهنا تبرز الحدود بين التّاريخ والأدب، حتّى وإن استمدّ الأدب -باعتباره دالاّ- مدلوله من التّاريخ.

[1] - لؤي خليل، عجائبية النثر الحكائي: أدب المعراج والمناقب، دط، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 2007. ص 149.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نسلّم ابتداء بعدم وجود أخبار تاريخيّة محضة في "عيون الأخبار"، فإذا كانت الأخبار التأريخيّة عادة ما تهتمّ برسم حدود الزّمن والتّدقيق في نقل الحقائق بموضوعيّة، فإنّ ابن قتيبة في أخباره لا يلزم نفسه بذلك، إلاّ ما جاء عرضا، أو ارتبط بالشّخصيات الّتي تحيل على عصر أو فترة معينة، فهو لم يهتم بالتّأريخ للبلدان و الأمم بل للشّخصيات وهنا نزوع نحو تشكيل اللّبنات الأساسيّة للتّراجم والسّير، وللتّوضيح نلجأ كما دأبنا إلى تقديم عيّنات تمثيليّة.

- العيّنة (أ)

أ- 1- «حدّثنا محمد بن عبيد عن معاوية بن عمر عن أبي إسحاق عن هشام عن محمّد بن سيرين قال: بعث عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه الأحنف بن قيس على جيش قِبَل خراسان فبيّتهم العدوّ ليلا وفرقوا جيوشهم أربع فرق وأقبلوا معهم الطّبل ففزع النّاس وكان أوّل من ركب الأحنف فأخذ سيفه وتقلّده ثمّ مضى نحو الصّوت وهو يقول:

إنّ عَلَى كُلِّ رئِيسِ حقاً أن يَخْضِبَ الصَّعْدَة أو تَندَقَّا

ثمّ حمل على صاحب الطّبل فقتله، فلمّا فقد أصحاب الطّبل الصّوت انهزموا ثمّ حمل على الكردوس الآخر ففعل مثل ذلك وهو وحده، ثمّ جاء النّاس وقد انهزم العدوّ فاتّبعوهم يقتلونهم، ثمّ مضوا حتّى فتحوا مدينة يقال لها مروُ الرّوذ »

(مجلد 1/ 209)

أ- 2- « قال ابن إسحاق: لمّا خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى بدر، مرّ حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن محمد وقريش وما بلغه من خبر الفريقين. فقال الشيخ: لا أخبركم حتّى تخبروني ممّن أنتم. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: إذا أخبرتنا أخبرناك، فقال الشيخ: خُبِّرتُ أنّ قريشا خرجت من مكّة وقت كذا، فإن كان الّذي خبّرني صادقا فهي اليوم بمكان كذا، للموضع الّذي به قريش. وخبّرت أنّ محمدا خرج من المدينة وقت كذا فإن كان الذي خبرني صدق فهو اليوم بمكان كذا، للموضع الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمّ قال من أنتم؟ فقال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رسول الله صلّى الله عليه وسلم: نحن من ماء، ثمّ انصرف فجعل الشيخ يقول: نحن من ماء! من ماء العراق أو من ماء كذا !أو من ماء كذا!» (مجلد 1/ 228)

أ-3-«أبو عليّ الأموي قال: كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، عند عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت قد غلبته في كثير من أمره؛ فقال له أبوه طلِّقها. فطلّقها و أنشأ يقول:

لَها خُلُقٌ سهلٌ ومَنْصِبُ وخَلقٌ سويٌّ ما يُعابُ ومَنْطقُ

فرمي يوم الطّائف بسهم ، فلمّا مات قالت ترثيه:

و آليتُ لا تنْفَكُّ عيني سخينَةً عليكَ و لا ينفكُّ جِلدي أغبرا

فلله عينٌ ما رأت مثله فتىً أعزُّ و أحمى في الهياج وأصبرا

إذا شرعت فيه الأسنّة خاضها إلى الموت حتَّى يترك الرّمح أحمرا

ثمّ خطبها عمر بن الخطّاب، فلمّا أولم قال عبد الرّحمان بن أبي بكر: يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أدخل رأسي على عاتكة؟ فقال نعم، يا عاتكة استتري. فأدخل رأسه فقال:

وآليت لا تنفكّ عيني قريرة عليك ولا ينفكُّ جلديَ أصفرا

فنشجت نشيجا عاليا، فقال عمر: ما أردت إلى هذا!كل النّساء يفعلن هذا!غفر الله لك. ثمّ تزوجها الزّبير وقد خلا من سنّها، فكانت تخرج باللّيل إلى المسجد ولها عجيزة ضخمة، فقال لها الزّبير لا تخرجي؛ فقالت: لا أزال أخرج أو تمنعني. وكان يكره أن يمنعها لقول النّبي صلى الله عليه وسلم: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" فقعد لها الزّبير متنكرا في ظلمة الليل، فلمّا مرّت به قرص عجيزتها، فكانت لا تخرج بعد ذلك، فقال لها: ما لك لا تخرجين؟فقالت كنت أخرج والنّاس ناس، وقد فسد النّاس فبيتي أوسع لي.» (مجلد 4/ 400)

تتجلى مظاهر الواقعيّة والألفة في هذه الأخبار من خلال شقيّها: السّند والمتن. فأمّا السّند ، فنلاحظ أنّ هذه الأخبار مسندة لرواة معروفين، يقدّمون هذه الأخبار بوصفهم شهودا عيانا، أو ناقلين عن رواة ثقاة، وهنا تحضر شروط قبول الخبر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصدقه كما رأينا مع الجاحظ. وأمّا المتن، فتتجلّى الألفة من خلال الحدث كعنصر أساس في ارتباطه بباقي المكوّنات (الشّخصية، الزمان والمكان)

- **الحدث**: لا نلاحظ في أحداث هذه الأخبار خروجا أو خرقا للتّجربة اليوميّة، حيث تبدو أليفة لمتلقّيها، فهذا خبر الأحنف يحارب ويجاهد في سبيل الله فينتصر، وهذا خبر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم خارج في غزوة بدر، يتوخّى تضليل المشركين والحذر منهم، وهذه حكاية عاتكة بنت زيد في زيجاتها الثّلاث. فلا شيء خارج عن وقائع الحياة اليوميّة التي كانت العرب تحياها في بداية عصر الإسلام.

- **الشّخصية**: تعتبر عنصرًا هاما لتحديد نمط الخبر، فالحدث الأليف تؤدّيه شخصيّة مرجعيّة لها وجود تاريخيّ فعلا، بحكم أنّنا نصادفها في كتب التّاريخ والسّير، فشخصيّة الرسول صلى الله عليه وسلم والأحنف وعاتكة بنت زيد، شخصيات وجدت تاريخيّا وعاشت، فلا شك في مرجعيتها.[1]

- **الزمان والمكان**: أشرنا إلى أنّ ابن قتيبة لم يهتم بالتأطير الزمني والمكاني إلاّ ما ورد عرضا في غير تدقيق، فالإشارة إلى فتح مدينة "مرو الرّوذ" في عهد عمر بن الخطاب بقيادة الأحنف إحالة إلى زمان ومكان محدّدين، وكذا خروج النّبي في موقعة بدر يحيل إلى فترة محدّدة من حياة النبي وتاريخ الدّعوة، وكذلك في خبر عاتكة إشارات زمنيّة تحيل على مراحل متباينة من عمر الشخصيّة، ويبقى الزّمن وحده رغم أهميته في منح الخبر صفة الواقعيّة غير كاف فلا بد من اشتغاله مع هذه المكونات ككل ومنها المكان الّذي ينعدم تحديده تقريبا في هذه الأخبار (خراسان، مرو الروذ)، وهنا لا بأس من التّذكير بأنّ هذه خاصيّة تميّز البنية البسيطة للخبر، بينما تتّسع العوالم المكانية و الفضاءات في أشكال أطول (قصص، سير).

وهكذا يتقدّم الضّرب الأول للنّمط الأليف للخبر (التاريخ)، محاولا أن يمدّ المتلقي بقطعة أو حادثة من حياة شخصيّة معروفة، لمقاصد وغايات ترتبط بالباب الّذي أدرج ضمنه الخبر(باب الشجاعة والحيل في الحروب للخبرين الأولين وباب مساوئ النساء في الخبر الثالث).

[1] - يراجع: سعيد يقطين، قال الرّاوي، ص 96.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمّا الضّرب الثّاني للنّمط الأليف المتمثّل في "المحتمل"، فهو ما لا نملك الجزم بوقوع أحداثه والتّأكد من وجود شخصيّاته وجودا حقيقيا، ولكنّه في عمومه مواز للتجربة اليومية لا يخرج عنها. وحتّى يتضح ذلك لنتأمّل العينة التمثيلية (ب)

- العينة (ب)

ب- 1- « مرّ رجل من العبّاد وعلى عنقه عصا في طرفيها زبيلان قد كادا يحطّمانه في أحدهما بُرٌّ وفي الآخر تراب، فقيل له ما هذا؟ قال: عدلت البُرَّ بهذا التراب، لأنّه كان قد أمالني في أحد جانبي. فأخذ رجل زبيل التّراب فقلبه وجعل البُرّ نصفين في الزّبيلين وقال له: احمل الآن، فحمله، فلما رآه خفيفا قال: ما أعقلك من شيخ» (مجلد2/ص 438)

ب – 2- «بات أعرابي ضيفا لبعض الحضر، فرأى امرأة فهمّ أن يخالف إليها في أول اللّيل فمنعه الكلب، ثمّ أراد ذلك في نصف اللّيل فمنعه ضوء القمر، ثمّ أراد ذلك في السّحر فإذا عجوز قائمة تصلي، فقال:

لم يخلقِ الله شيئًا كنتُ أكرَهُهُ غيرَ العجوزِ وغير الكلبِ والقمرِ

هذا نبوحٌ وهذا يستضاءُ به وهذه شيخةٌ قوّامة السّحرِ»

(مجلد 4/ 394)

أول ما يلاحظ على هذين الخبرين أنّهما غير مسندين، فثمّة راوٍ مجهول (ولنرجّح أنّه ابن قتيبة باعتباره الناقل المدون)، فالخبر محكي دون واسطة، حيث يقف الرّاوي خلف الأحداث والشخصيات ولا يظهر إلا ضمير الغائب. وهكذا بغياب العنعنة يترك الباب مفتوحا أمام المتلقي لتصديق أو لا تصديق هذه الأخبار.

أما بالانتقال إلى المتن للنّظر في مكوّنات الخبر، فسنلاحظ أنّ الأحداث أليفة لا غرابة فيها ولا عجب، ومنه يحتمل أنّها وقعت أو قابلة لذلك.

أمّا شخصياتها فهي شبه مرجعيّة (رجل، شيخ، أعرابي، ...) فهي كلمات عامة مشتركة تحيل على شخصيات مألوفة تنتمي للعالم الطبيعي ومن هنا تستمدّ واقعيتها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمّا بالنسبة لعنصري الزمان والمكان فتغيب مؤشراتهما تماما.

نصل بعد معاينة نمط الخبر الأليف في "عيون الأخبار" إلى أنّه يتدرج من النّقل الحرفي للوقائع الّتي حدثت فعلا ،والّتي تحيل على مرجع محدد (أحداث تاريخية وشخصيات مرجعية)، إلى المحتمل الّذي لا يخالف الواقع ولا يخرج عن التّجربة، ومع هذا الثّاني يفتح المجال لتداخل الواقعي بالتّخييلي فينحو الأليف نحو "الغريب"، ومنه إلى العجيب كما سنرى، من هنا يتّضح لنا كما ذهب الباحث سعيد جبار كيف كان الرّواة يستغلّون أحداثا واقعية لينسجوا حولها أخبارا تخييلية تزيد الأحداث تشويقا وجماليّة ويتداخل بالتّالي الواقعي والتخييلي في صورة محكمة متناسقة.[1]وهذا التّداخل هو ما سيظهر في النّمطين التّاليين.

2-2- الخبر الغريب:

في الخبر الغريب يكون المتلقي أمام أحداث ووقائع تخرج عن المألوف واليومي، فالخبر يفوق التّجربة ويخرج عنها، إلاّ أنّه يجد له سندا في الواقع بوجه من الوجوه، بمعنى أنّ الغرابة الّتي تواجه المتلقّي يمكن تفسيرها بقوانين العقل.[2]

وهنا يحضر السؤال التّالي: أين تكمن هذه الغرابة في أخبار ابن قتيبة؟ ومن الّذي يشعر بها؟ أ هو المتلقّي أم الراوي أم الشخصية؟ وفي أي مكوّن ومستوى يقع الخروج عن المألوف أفي الحدث أم الشخصيّة، أم في مستوى آخر (اللّغة مثلا)؟

إنّ هذه الغرابة والعجب يضعان الخبر في مستوى القراءة، فالمتلقّي هو الّذي يشعر بها تبعا لخلفيّته الثقافيّة وتجربته اليوميّة، فخرق التّوقع، وتحطيم الألفة بين الخبر والمتلقّي هو ما يولّد الحكم عليها بالغرابة، والمتلقّي في " عيون الأخبار" منقسم إلى: متلقٍّ حاضر في الخبر(ضمني) قد يكون الرّاوي أو الناقل أو الشخصيّة، ومتلقٍّ غائب غير محدّد زمانيا ولا مكانيا، والّذي يضمّنا بوصفنا متلقّين للخبر من مسافة حضاريّة معيّنة.

[1] - يراجع: سعيد جبار، الخبر في السرد العربي، ص 205.
[2] - يراجع: تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ص 60.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نلاحظ على نصوص الخبر في "عيون الأخبار" أنّها كثيرا ما تحمل في ذاتها إشارات انتمائها إلى الغريب والعجيب، وذلك من خلال الوصف الذي يقدم به الرّاوي حكيه -بالأخص إذا كان مشاركا- وهنا نشير إلى ظهور حاجات تلقٍ جديدة في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، أو بالأحرى تخصّ فئة معيّنة (العوام، المتفكّهون) في مقامات مخصوصة (السّمر والمنادمة)، حيث يتجلّى إقبالهم على الأخبار ولا سيّما العجيب والغريب والظريف والطّريف، «حتّى أنّهم يشترطون هذا النّوع قبل سماعه، ويُطرُونه إن استجاب لرغباتهم ويستعيدونه إن أرادوا الإمتاع به »[1]، وهذا ما يمكن أن نلاحظه مثلا في ما ورد من أخبار تحت باب " أخبار الشّجعان والفرسان وأشعارهم"، والّتي تقدّم نماذج تخرج عن المألوف في الشّجاعة، وهذا ما توضّحه العيّنة التمثيليّة التالية:

-العيّنة (أ)

أ- 1- « حدّثني أبو حاتم قال: حدّثني الأصمعي قال: سمعت الحَرَسيّ يقول رأيت من الجبن والشجاعة عجبا. استثرنا من مزرعة في بلاد الشّام رجلين يذريّان الحنطة، أحدهما أُصَيْفِر أُحَيْمِس، والآخر مثل الجمل عِظَما، فقاتلنا الأصيفر بالمذرى لا تدنو منه دابة إلاّ نخّس أنفها وضربها حتّى شقّ علينا فقُتِل ولم نصل إلى الآخر حتّى مات فرقا فأمرت بهما فبقرت بطونهما فإذا فؤاد الضّخم يابس مثل الحشفة، وإذا فؤاد الأصيفر مثل فؤاد الجمل يتخَضْخَضُ في مثل كوز ماء » (مجلد1/ 207)

أ- 1- « قال سهل: حدّثنا العتبيّ قال: حدّثني رجل من بني تميم عن بعض أشياخه من قومه قال: كنت عند المهاجر بن عبد الله والي اليمامة فأتي بأعرابي قد كان معروفا بالسّرق فقال له: أخبرني عن بعض عجائبك، قال إنها لكثيرة، ومن أعجبها أنّه كان لي...»إلى آخر الحكاية (مجلد1/212)

أ- 3- «بلغني أنّ محمّد بن خالد بن يزيد بن معاوية كان نازلا بحلب على الهيثم بن يزيد التّنوخي، فبعث إلى ضيف له من عذرة فقال: حدّث أبا عبد الله ما

[1] - محمد القاضي، الخبر في السّرد العربي، ص 634.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رأيتَ في حاضرة المسلمين من أعاجيب الأعراس. قال: نعم، رأيت أمورا معجبة، منها أنّي رأيت... » إلى آخر الحكاية (مجلد 3/ 243)

يتّضح من هذه أسانيد هذه الأخبار والحكايات أنّ هناك مقاما معيّنا يدعو؛ بل يشترط رواية هذا النّمط من الأخبار الخارجة عن العادة والمألوف، وهذا الرّاوي بوصفه شخصية فاعلة في الخبر يُشعِر متلقيّه بالغرابة والعجب ويهيِّئه لتلقّي هذا النّمط، ولكنها تبقى أحداثا قابلة للتّفسير منطقيًّا، فالغرابة هنا تكمن في رؤية الرّاوي. قد يتساءل متسائل لم الحديث عن الغرابة في حين نجد في هذه الأمثلة صفة " العجب والعجيب"؟ وهنا نركز على المنطلق الذي انطلقنا منه، وهو أنّ الغريب له سند في الواقع، طريقة تقديمه هي الّتي تجعل منه يبدو غير مألوف، في حين العجيب خارج عن قوانين الطّبيعة كما سيأتي.

أمّا عن مظاهر الغرابة في الأمثلة المقدّمة أعلاه فتخص الصّفات الّتي قُدِّمت بها هيئات الشّخصيات وأفعالها، وهو ما يظهر في الخبر (أ-1) حيث نلمس المفارقة بين الهيئة والفعل، وكذلك في متن حكاية الأعرابي السارق (لم نورد النصوص كاملة بغية الاختصار) نصادف صفات غريبة لرجل " عظيم البطن مثدّن اللحم"، ويعزّز شكله الضّخم شراهته في الأكل " احتلب تسع أينق فشرب ألبانهن ثمّ نحر حوار فطبخه ثمّ ألقى عظامه بيضا" وفوق هذا يمتاز بالسرعة في العدو والدقّة في الرّمي، وقمّة الغرابة تأتي من منظور الرّاوي-السّارق الّذي سرق مضيفه، في العفو عنه بل وإكرامه، وهذا ما تؤكده صيغ التّفضيل المضافة للقسم على لسان الرّاوي: " والله ما رأيت أعرابيّا قطّ أشدّ ضرسا و لا أعدى رِجلا و لا أرمى يدا ولا أكرم عفوا ولا أسخى نفسا منك".

كما يتجلّى الغريب في حكاية العذري من خلال انبهاره الظّاهر في طريقة حكيه ووصفه ما رآه من عجائب ومغربات، فنتخيّل من أوصافه أنّنا أمام أمور أخرى، ففي وصفه للخبز قال: «ثمّ أُتينا بخرق بيض فألقيت بين أيدينا، فظننتها ثيابا وهممت عندها أن أسأل القوم خرقا أقطع منها قميصا، وذلك أنّي رأيت نسجا متلاحما لا تبين له سدى ولا لحمة، فلمّا بسط القوم أيديهم إذا هو يتمزّق سريعا وإذا هو فيما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زعموا صنف من الخبز لا أعرفه...»، وهكذا تبدوا الأمور غريبة في بداية الحكي والوصف، ولكنّها سرعان ما تتّضح وتأخذ تفسيرا عاديّا، وهنا نشير إلى قرب المسافة بين الرّاوي والمرويّ، ممّا يجعل المتلقّي يتقدّم خطوة خطوة مع الرّاوي في اكتشاف الأحداث وولوج عالم الحاضرة الغريب المتنوّع وحينئذ تكون الرّؤية متساوية بين الرّاوي والمرويّ له، وهنا سيدرك متلقيّ هذه الحكاية أنّه أمام نادرة أعرابي يستمدّ غرابة الأشياء من بيئته، «وعندما تحضر نوادر الأعراب في مثل هذه المدوّنات فلأنها تعرض لنمط مغاير من الحياة يرضي حياة أهل المدن ويزيّنها؛ فالأعراب أصحاب خطاب هامشيّ، مطرود متناقض، شاحب، غريب، مضحك، شديد المفارقة والافتراق»[1].

يتجلى إذن ما لصيغة الحكي من دور في إبراز غرابة الخبر، وعليه فطريقة الحكي هي الأخرى تسمح بانتماء الأخبار إلى نوع أو نمط ما. هكذا تبدو الغرابة في مستوى آخر غير مستوى الأحداث والشخصيات إنّه مستوى اللغة، فغرابة اللغة (باعتبارها ممارسة يوميّة) وابتعادها عن اليوميّ والمألوف من شأنه إحداث الغرابة لدى المتلقيّ، وهذا ما يتّضح في الأخبار الواردة في كتاب "***العلم والبيان***" تحت باب بعنوان "***باب التّشادق والغريب***"، فثمّة فئة خاصّة من المجتمع (النحويّون واللغويّون والأعراب) تخرج عنه في خطابها الغريب والحوشيّ، هذا الخطاب الّذي يتقدّم بوصفه فعلا (فعل الكلام) يتنافى والتّجربة اليومية (اللّغة السّائدة)، وهنا نذّكر بخبر أبي علقمة النحويّ الّذي مرّ معنا في المبحث السّابق، وكيف استطاع بكلامه الغريب التّخلّص من القوم الّذين هجموا عليه، إذ جعلهم يحسبونه مسكونا بشيطان هندي، وهذا الاعتقاد الحاصل نتاج مسلّمة راسخة عند العرب تنسب كلّ كلام "غريب" و"عجيب" "فذ" للجنّ والشّياطين (مخلوقات فوق طبيعية) ، من هنا ينحو التّخييل نحو التّخيّل والغريب نحو العجيب.

[1] - محسن جاسم الموسوي، سرديات العصر الإسلامي الوسيط،ط 1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1997.ص 35.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- 3- الخبر العجيب:

يكون الخبر عجيبا عندما يتجاوز التّجربة ويفوقها، حيث يتمّ خلق عوالم جديدة تقوم على التّخيل من خلال اختراع أشياء (أحداث، أشخاص، كائنات) لا وجود لها في عالم التّجربة الواقعيّة العاديّة، فهل نحن بصدد اللاّصدق الّذي تحدّث عنه ابن قتيبة وابن وهب وغيرهما؟ إنّ مفهوم الحقيقة في الثّقافة الإسلاميّة يتّسع ليشمل قوانين الفيزيقا والميتافيزيقا، لأنّه نابع من الإيمان الرّاسخ بوجود عوالم أخرى غيبيّة، تتجاوز مدركاتنا الحسيّة ولكنّنا نؤمن بها، بل يجب ذلك.

وعلى هذا الأساس عندما نصادف أخبارا تتحدّث عن كائنات لا تنتمي للعالم المحسوس مثل: "الملائكة" و "الجن" و"الشياطين" و"الغول"...، أو أفعالا خارقة لقوانين الكون كـــ"المعجزات" و"الكرامات" الّتي يؤدّيها صنف خاص من البشر (الأنبياء والأولياء والصّالحين)، فهذا لا يعني خروجا عن مبدأ الحقيقة والصّدق الّذي يتحرّى ابن قتيبة تحقيقه من خلال تأكيده على رابطة السّند كلّما تعلّق الأمر بإيراد هذا النّمط من الإخبار.

وفي الوقت نفسه لا ينتفي شرط العجيب – كما حدّده تودوروف- بالإقرار بحقيقة هذه الأخبار الّتي لا تنفي عدم قبولها تفسيرا بقوانين الطّبيعة، وهنا يظهر أنّ معيار العجب ليس مطلقا ، فهو محكوم بسياق ما، ومنه يختلف باختلاف الثّقافات كما قرّر ذلك الباحث سعيد يقطين في قوله:«فما هوعجيب عند قوم ليس كذلك عند قوم آخرين، وإن كانت هناك عجائب مشتركة عند الأمم جميعا»[1].

يلاحظ أنّ ورود هذا النّمط من الأخبار بنسبة أقلّ مقارنة مع النّمطين السّابقين، لا سيّما الأليف، ولكن ما وجد يكفي لتبيّن الملامح الأساسية الّتي تُدخل الخبر ضمن دائرة العجيب، وتمهّد لظهور أنواع حكائيّة (المعراج، الكرامة، المنقبة..) تؤسّس لما يسمّى بالأدب الصوفيّ في مرحلة لاحقة.

من خلال استقرائنا لـــ" عيون الأخبار" يمكن تحديد مواقع الخبر العجيب الّذي تحضر فيه كائنات لا تنتمي لعالمنا، وذلك ما يقدّمه ابن قتيبة في آخر كتاب ***"الطبائع***

[1] - سعيد يقطين، ذخيرة العجائب العربية: سيف بن ذي يزن،ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب،1994، ص 10.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والأخلاق المذمومة" تحت باب بعنوان ***"الجنّ"***[1]، كما يورد أخبارا تتعلّق بمعجزات بعض الرّسل وما فيها من خوارق في كتاب "الزهد" تحت باب "ما أوحى الله عزّ وجلّ إلى أنبيائه عليهم السّلام"[2].

أمّا في "باب الجن" فنعثر على طائفة من الأخبار المسندة بسلسلة رواة ثقاة، يرد فيها ذكر لهذه المخلوقات وما كان لها من حوادث مع النّبي والصّحابة، ممّا يؤكد أنّ مظهر الحقيقة في العجيب، هو مظهر راسخ في الثّقافة الإسلاميّة، يمتلك واقعيّته داخل نص الخبر وخارجه، وللتّوضيح أكثر نورد العيّنة التّمثيليّة التّالية:

- العيّنة (أ)

أ- 1- « حدّثني خالد بن محمّد الأزديّ قال: حدّثنا عمر بن يونس قال: حدّثنا عكرمة بن عمّار قال: حدّثنا إسحاق بن أبي طلحة الأنصاري قال: حدّثني أنس بن مالك: قال: كانت بنت عوف بن عفراء مضطجعة في بيتها قائلة إذا استيقظت وزنجيّ على صدرها آخذا بحلقها، قالت: فأمسكني ما شاء الله وأنا حينئذ قد حرمت عليّ الصّلاة، فبينا أنا كذلك نظرت إلى سقف البيت ينفرج، حتى نظرت إلى السّماء فإذا صحيفة صفراء تهوي بين السّماء والأرض حتّى وقعت على صدري، فنشرها وأرسل حلقي فقرأها، فإذا فيها: من ربّ لُكَيز إلى لُكَيز، اجتنب ابنة العبد الصّالح إنّه لا سبيل لك عليها.ثمّ ضرب بيده على ركبتي وقال: لولا هذه الصّحيفة لكان دم؛ أي لذبحتك، فاسودت ركبتي حتّى صارت مثل رأس الشّاة، فأتيت عائشة، فذكرت لها ذلك، فقالت لي يا ابنة أخي، إذا حِضت فألزِمي عليك ثيابك فإنّه لا سبيل له عليك إن شاء الله. فحفظها الله بأبيها وكان استشهد يوم بدر» (مجلد2/ 510)

أ- 2- « حدّثني سهل بن محمّد عن الأصمعي قال: أخبرنا عمر بن الهيثم عن عُمَيْر بن ضُبَيْعة قال: بينا أنا أسير في فلاة أنا وابن ظبيان – أو رفيق له آخر ذكره- عرضت لنا عجوز- كذا سمعته يقول، إن شاء الله أو شيخ- ورأيتُ في كتاب محمّد ابنه- وصبيّ يبكي؛ فقال إنّي منقطع بي في هذه الفلاة فلو تحمّلتماني! فقال صاحب

[1] - عيون الأخبار، مج2، ص 509.
[2] - م ن، مج 2، ص 646.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عمير: لو أردفته! فحمله خلفه، فمكثنا ساعة فنظر في وجه عمير وتنفّس فخرج من فيه نار مثل نار الأتُّون فأخذ له عمير السّيف؛ فبكى وقال: ما تريد منّي؟ فكفّ عنه ولم يعلم صاحبه بما رأى؛ فمكث هنيهة ثمّ عاد، فأخذ له السّيف؛ فبكى وقال: ما تريد منّي؟ وبكى؛ فتركه ولم يعلم صاحبه؛ ثمّ عاد الثّالثة ففغر في وجهه؛ فحمل عليه بالسّيف؛ فلمّا رأى الجدّ وثب وقال: قاتلك الله ما أشدّ قلبك! ما فعلته قطّ في وجه رجل إلا ذهب عقله» (مجلد2/ 511)

أ- 3- « بلغني عن محمّد بن عبد الله الأسدي عن سفيان عن ابن أبي ليلى عن أخيه عن عبد الرّحمان عن أبي أيّوب الأنصاري أنّه كان في سفرة له وكانت الغول تجيئه، فشكاها إلى النّبي صلّى الله عليه وسلم فقال: إذا رأيتها فقل باسم الله أجيبي رسول الله، فجاءت فقال لها ذلك فأخذها فقالت لا أعود، فأرسلها، فقال له النّبي عليه السّلام: ما فعل أسيرك؟ فأخبره ، فقال: إنّها عائدة، ففعلت ذلك مرّتين أو ثلاثا، وقالت في آخرها: أرسلني وأعلّمك شيئا تقوله فلا يضرّك شيء: آية الكرسيّ. فأتى النّبي عليه السلام فأخبره، فقال: صدقت وهي كذوب» (مجلد2/511)

نلاحظ في هذه النماذج حضور مخلوقات من عالم آخر وهي "الجن" وعبورها إلى عالمنا المحسوس وتعاملها مع بني البشر، بوصفنا قراء ننتمي إلى الثّقافة الإسلامية نؤمن بوجود هذه المخلوقات رغم تجاوزها لحواسّنا الإدراكيّة، وعليه يبقى التّخيل هو سبيل التفكير في هذه العوالم وإمكانيات وجودها، وقد عملت المخيّلة العربيّة على نسج أخبار و أحوال هذه المخلوقات وظلت مُهابة يُخشى منها، وساد الاعتقاد بامتلاكها قدرات خارقة على التّحول والأذى والنّفع، وهذا الاعتقاد راسخ يجد سنده من المقدّس لقوله عز ّوجل في سورة "***الجن***": ﴿***وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُم رَهَقًا***﴾ [الآية 6]، ولكنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه كيف يتّقون شرّ هذه المخلوقات كما هو واضح في خبر أبي أيّوب الأنصاري والغول.

يتجاور "الأليف" مع "العجيب" في هذه الأخبار وهو شرط من شروط تحقّق العجائبي على النّحو الّذي صاغه تودوروف، ففي خبر ***بنت عوف*** يختلط الحلم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

باليقظة والواقع باللاّواقع ولا يتمّ الفصل في ذلك إلا في نهاية الخبر عندما تلجأ المرأة إلى عائشة رضي الله عنها، والّتي تعطي تفسيرا لحضور الجن والشّياطين وتسلطهم على الإنسان في حالات مخصوصة (عدم الطّهر)، فلولا العناية الإلهية الّتي تغمّدت المرأة – لصلاح والدها- لهلكت.

هذه الجنّة في عبورها إلى العالم المحسوس اتخذت هيئات مألوفة (الزّنجي، الشيخ) ولكن أفعالها الخارقة (نفث النّار من الفم) وحضورها واختفاؤها في أماكن وأوقات محددة(القيلولة، اللّيل، السّفر..)هو ما يكسب الخبر عجائبيّة تدخله في نطاق العجيب.

هذا بالنّسبة لباب ***"الجن"***، أمّا فيما يخص ما جاء من معجزات الرّسل فقد أورده ابن قتيبة تحت سند آحاد وهو ***"وهب بن منبّه"*** الّذي أُخذت عنه كثير من أخبار الأنبياء في الثّقافة الإسلاميّة[1]، لتحضر بذلك نصوص عن أمم غابرة ليس من سبيل للتّأكد من وجودها إلاّ المرجعيّة الدينيّة، وحيث أنّ النّبي أذن للمسلمين الأخذ -في مجال قصص الأنبياء وأقوامهم الغابرة لأخذ العبرة والدرس من معجزاتهم- عن اليهود والنّصارى شرط عدم التناقض مع ما جاء من ذكرهم في القرآن، فإنّنا نلاحظ حضور المرجعيّتين اليهوديّة والمسيحيّة جنبا إلى جنب مع المرجعيّة الإسلاميّة، والّتي عملت مجتمعة على إنتاج أحداث تخيّلية بهدف ترسيخ مجموعة من المعتقدات في ذاكرة المتلقّي. وقد مرّ معنا في موضع سابق نموذج لمعجزة نّبي، ونشير هنا إلى "حكاية النّبي عزير والمدينة"[2]، حيث تتجلّى عناصر العجيب من خلال حضور كائنات غيبيّة ممثلة في شخصيّة الملك، وكذلك المرأة التي تتحول فجأة إلى مدينة عالية الأسوار، وتلك هي المعجزة الّتي يختص بها الله من خلقه من يشاء، فخالق هذا الكون يخرق قوانينه متى شاء ولمن يشاء.

نخلص في استقصائنا لمظاهر نمط "الخبر العجيب" من خلال "عيون الأخبار" إلى أنها رغم تحقيقها شرط الخروج عن المألوف من حضور لكائنات من عوالم أخرى، وخرق قوانين الكون بشكل يرفض تفسيرا عقليا، إلا أنّها لا تتنافى ومبدأ

[1] - يراجع: ابن كثير،قصص الأنبياء، تحقيق: صديقي جميل العطار،ط 1، دار الفكر، لبنان، 2003.
[2] - يراجع ملخص أحداث الحكاية الوارد في الصفحتين 92-93 من البحث.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحقيقة الّتي تجد سندها في الخلفيّة العقائدية الّتي تدعم هذه الأخبار، فما يعجز العقل عن تفسيره بقواعد المنطق، يفسّره القلب بقواعد العقيدة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3-مقاصد الخبر وأبعاده بين الجد والهزل

بعد معاينة بنيات الخبر الّتي حدّدت نوعين أصليّين للخبر(الخبر البسيط والحكاية)، و أنماط الخبر الّتي تحدّدت وفق النّظر في العلاقات الّتي تربط الخبر بالتجربة(الأليف والغريب والعجيب)، سنحاول في هذا المبحث النّظر في مقاصد الخبر، الّتي تتنوّع وتختلف حسب الاستعمال والأبعاد، ولتحقيق ذلك لابدّ من النّظر في مقاصد المصنّف ابن قتيبة المعلنة والخفيّة من جانب، ومحاولة الإلمام بالسّياق الثّقافي الّذي ينتمي إليه المصنّف من جانب آخر، والسّعي إلى التّركيب بينهما.

3- 1-الجدّ والهزل في التّراث وتكريس الثّقافة العالمة

تندرج مقاصد الخبر ضمن مقاصد الأدب الّتي أشرنا إليها في التّأطير الّذي صدّرنا به هذا البحث[1]، وعليه سنفترض ابتداءً أنّ مقاصد الخبر لا تخرج عن الفائدة والمنفعة الّتي تنمّي النّفس والرّوح وهو كما يبدو مقصد جديّ ينأى عن اللّهو والعبث، وهنا نتساءل عن مقاصد الخبر في التّراث؟ و ما هي المعايير الّتي تحكّمت في قبول أو رفض الكلام ؟

توصّل الباحث عبد العزيز شبّيل من خلال استقصائه لأجناس الأدب في التّراث إلى أنّ ثنائيّة (جد/هزل) تحكّمت في بروز أنواع على حساب أخرى بإعطائها أولويّة، مستدلاّ بآراء نخبة من النّقاد والكتّاب، ويرى أنّ أهميّة هذا التّصور« لا تتمثّل في ذاته بقدر ما تتمثل في تأثيره على المنظومة الأدبيّة في العصور اللاّحقة ، بما يجعلها تبقى أسيرة تلك النّظرة الثنائيّة، مقصية الأدب الهازل عن مجال الأدب إلا لماما» [2]، وعلى هذا الاعتبار سيتمّ الاهتمام بالأنواع الّتي تجسّد "نصا" من منظور هذه الثّقافة، وهي النّصوص الجديّة، أمّا ما عداها فتمثّل "اللاّنص" الّذي سيقصى ويهمّش.[3]

---

[1]- ينظر: التّأطير، ص 7.
[2]- عبد العزيز شبّيل، نظرية الأجناس في التراث النثري، ص 244.
[3]- للتوسّع حول مفهوم النص واللانص في الثقافة العربيّة يراجع: الفصل الأول من كتاب الكلام والخبر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استنادا إلى هذا يمكن القول أنّ الثقافة السّائدة هي الّتي أنتجت معيارا لرفض أو قبول نوع الكلام ليندرج ضمن منظومة الأدب، وعليه قسّمت الثقافة –ولازالت إلى يومنا- إلى مستويين هما: الثّقافة العالمة، والثّقافة العاميّة (الشعبيّة)، وإذ نعرض لهذه الزّاوية فليس من باب المفاضلة بينهما-الثّقافتين- أو تكريس إحداهما على الأخرى، إنّما نريد عرض هذه الخلفيّة التي ستحتضن مقاصد ابن قتيبة، لإبراز مقدار التزامه بها أو خروجه عنها، ولأنّ إقصاء أي جزء من التّراث- أيًّا كان نوعه أو انتماؤه- سيحرمنا كما يرى سعيد يقطين من النّظرة العلميّة الشموليّة الّتي تسمح بترسيخ وعي نقدي وأدبي متكامل.[1]

إنّ وجود مؤلِّف "عالم" ومتلقٍّ "خاص" في التّراث العربي استلزم وجود نص "مميّز"، ولئن كانت ثنائيّة (جديّ/هزليّ) هي المتحكّمة في تصنيف الثّقافة، فإنّ هذا يستدعي وجود وضعين تواصليّين متباينين، وهو ما نجد إشارات إليه عند كل من ***ابن المقفع والجاحظ***، وغيرهما من تقنين لمواطن الجد ومواطن الهزل؛ حيث مارس كلّ منهما هذين الضربين أو أحدهما، حيث نجد ابن المقفّع في حديثه التّعليمي التّوجيهي في ***"الأدب الكبير"***، يؤكّد على المنحى الجديّ، رغم أنّه لم يُقصِ الهزل الهادف[2]، أمّا الجاحظ الّذي اهتم بطرفي الثنائيّة تنظيرا وممارسة، يحاول إمساك العصا من وسطها، وقد أدرج في ثنايا كتبه ورسائله الجدل الحاصل بين الثقافتين، ففي رسالة ***"التّربيع والتّدوير"*** يوضّح ما بين الجدّ والهزل من وشائج على مستوى الكلام، مناقشا ما جاء في محاسن ومساوئ كل منهما، يقول:«فإنّ الكلام قد يكون في لفظ الجدّ ومعناه معنى الهزل، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجدّ. ولو استعمل النّاس الدّعابة في كل حال والجدّ في كل مقال وتركوا التّسمّح والتّسهيل وعقدوا في كلّ دقيق وجليل لكان السّفه صراحا خيرا لهم والباطل محضا أردّ عليهم. ولكن لكلّ شيء قدر ولكلّ حال شكل، فالضّحك في موضعه كالبكاء في موضعه، والتّبسّم في موضعه كالقطوب في موضعه وكذلك المنع والبذل والعقاب والعفو وجميع القبض والبسط. فإن ذممنا المزاح ففيه لعمري ما يذمّ، وإن حمدناه ففيه ما

[1]- سعيد يقطين ،السّرد العربي، ص 33.

[2]- يراجع: ابن المقفّع، "الأدب الكبير"،آثار ابن المقفّع، تقديم عمر أبو النّصر، منشورات دار مكتبة الحياة،ط1، بيروت 1996.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يحمد وفصل ما بينه وبين الجد أنّ الخطأ إلى المزاح أسرع وحاله بحال السّخف أشبه، فأمّا أن يذمّ حتّى يكون كالظلم وينفى حتّى يصير كالغدر، فلا لأنّ المزاح ممّا يكون مرّة قبيحا ومرّة حسنا، والظلم لا يكون مرّة قبيحا ومرّة حسنا»[1]، ولم تعوز الجاحظ (شيخ المعتزلة) الأدلّة العقليّة والنّقلية لتبرير الموقفين والتوسّط بينهما، فهو على ما يرى الباحث ***محمد مشبال*** يريد أن يؤسّس لبلاغة أخرى قوامها امتزاج الجدّ بالهزل، ويعلق على نظرة الجاحظ بقوله: «وربّما كان هذا الرّأي دعوة إلى تفهّم أكثر وفقا لما ورد في باب الهزل؛ فما أكثر المواقع الّتي يرتبط فيها الهزل بالرّاحة والضّحك بدفع السّآمة. ولكنّ الجاحظ الّذي رسّخ هذا الاقتران لم يفاضل بين الجد والهزل، ولم يعتبره هامشا زائدا يمكن إسقاطه ولا استراحة يجوز الاستغناء عنها. يجب أن نكفّ عن تزويد بعض الألفاظ المحبوبة للأسلاف بمدلولات قاسية؛ فلا الهزل باب ملحق، ولا الرّاحة أمر زائد، ولا الضّحك موضع عيب. لقد أدرك الجاحظ أنّ التّواصل يقتضي تضافر الجدّ والهزل، وليس أحدهما أولى بالتّفضيل من الآخر»[2]، وهكذا تبدو نظرة الجاحظ لثنائية الجد والهزل أكثر مرونة وانفتاحا، من صرامة ابن المقفّع، كما يتعرّض ***ابن وهب*** في كتابه ***"البرهان في وجوه البيان"*** لطرفي الثنائيّة فقد وضع حدود كل منهما وأسسه،إذ اعتبر الجدّ والهزل وجهين من أوجه الكلام الكثيرة، فمنها:« الجدّ والهزل، والسّخيف والجزل، والحسن والقبيح، والملحون والفصيح، والخطأ والصّواب، والصّدق والكذب، والنّافع والضّار، والحقّ والباطل، والنّاقص والتّام، والمردود والمقبول، والمهم والفضول، والبليغ والعييّ»[3]، يقوم ابن وهب بشرح هذه الثّنائيات كلاّ على حدة، إلاّ أنّها تبقى منشدّة إلى الثنائيّة الأولى. وبتقديمه لهذه الثّنائيات تتّضح رؤيته المتكاملة لثقافتين: ثقافة علماء حكماء، وثقافة جهّال سفهاء ويتضّح ذلك في تقسيمه:

1- « فأمّا الجدّ فإنّه كل كلام أوجبه الرّأي وصدر عنه، وقصد به قائله وضعه موضعه»[4]، وهو بلا شك ما يصدر عن النّخبة المثقّفة.

---

[1] - الجاحظ، رسائل الجاحظ، تقديم وشرح: علي أبو ملحم، دط، دار مكتبة الهلال، بيروت، 2000. ص 460.
[2] - محمد مشبال ، بلاغة النّادرة، ط2، دار جسور للطباعة والنّشر والتّوزيع، المغرب، 2001. ص 29.
[3]- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 198.
[4]- م ن، ص ن.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- « وأمّا الهزل فما صدر عن الهوى»، وهنا يصدر الكلام عن السّفهاء والجهّال، أمّا عن استعماله فيكون: إمّا عالم وإمّا جاهل، وعلى أساس الاستعمال تتحدّد مشروعيّة الكلام وتقبّله، الّتي تحدّد مقاصده، يقول ابن وهب:

أ- «فأمّا الحكماء والعقلاء فاستعملوه في أوقات كلال أذهانهم، وتعب أفكارهم ليسجموا به أنفسهم ، ويستدعوا به نشاطهم، ويروّحوا به عن قلوبهم خوفا من ملالها وكلالها(...) ومن قصد هذا بالهزل فالجدّ أراد لأنه قصد المنفعة، وما يوجبه الرّأي في سياسة نفسه وعقله، وإجمام فكره وقلبه وقد كان الرّسول صلى الله عليه وسلّم يمزح ولا يقول إلا حقا»[1]، فهذا النّوع من الهزل مقبول، ويلحق بالجد لأنّ القصد منه حصول المنفعة (جدّ).

ب- « وأمّا السّفهاء والجهّال فاستعملوه للخلاعة والمجون ومتابعة الهوى، وذلك المذموم الّذي قد عاب الله-سبحانه- مستعمله، ومدح المُعرِض عنه»[2].

يمكن تبعا لهذا التّمييز بين كلام العلماء الحكماء وكلام الجهّال السّفهاء إلحاق ثنائيّة أخرى لصيقة بالجانب الجديّ والهزليّ، وهي السّخف والجزالة، فالسّخيف الذي هو«كلام الرّعاع الّذين لم يتأدّبوا ولم يسمعوا كلام الأدباء ولا خالطوا الفصحاء»[3] قد يستعمل في مواطن خاصّة وأنواع كلاميّة تنسب للعامّة، فيكون نقلها محاكاة لأصحابها في القول« وللّفظ السّخيف موضع آخر لا يجوز أن يستعمل فيه غيره، هو حكاية النّوادر والمضاحك، وألفاظ السّخفاء والسّفهاء فإنّه متى حكاها الإنسان على غير ما قالوا خرجت عن معنى ما أريد بها، وبردت عند مستمعها، و إذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها وقعت موقعها، وبلغت غاية ما أريد بها، فلم يكن على حاكيها عيب في سخافة لفظها»[4]، أمّا الكلام الجزل فهو كلام الخاصّة والعلماء والعرب الفصحاء والكتاب الأدباء، مشيرا إلى الشّعر والخطابة والتّرسّل.

---

[1]- ابن وهب،البرهان في وجوه البيان، ص 199.
[2]- م ن، ص 200.
[3]- م ن، ص ن.
[4]- م ن، ص 201.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ هذا التّباين في مستوى الكلام ونسبة المتكلّم ينجرّ عنه تباين في المتلقّين، إن لم نقل أنّ نوعيّة المتلقّي هي الّتي تفرض نوعيّة المتكلّم والكلام، وهذه العناصر الثّلاثة مؤطَّرة كما سبقت الإشارة بـــ"مجالس" تعدّ فضاء لإنتاج الكلام وتلقيّه، ومن هنا يميّز ابن وهب -بغية استكمال نظرته حول الثّقافتين- بين نوعين من المجالس محدّدا شروط كل منهما«فمجالس السّلطان مخالفة لمجالس الرّعيّة، ومجالس العلماء مخالفة لمجالس الجهّال، ومجالس الجد مخالفة لمجالس الهزل»، ومن خلال كلام ابن وهب هذا يمكن المطابقة بين :

- ***مجالس الخاصّة (الثقافة العالمة)***: غالبا ما يحضر فيها السّلطان باعتباره متلقيّا لمتكلم مثقّف هو العالم، وينزع الكلام أنواع معينة (نصيحة/وعظ/مدح/تقريض...) بغية تحقيق المعرفة الدينيّة والدنيويّة، فهو مقصد جاد يحقّق منفعة.

- ***مجالس العامة(الثقافة العاميّة)***: ينتمي فيها كل من المتلقي والمتكلّم إلى الرّعيّة (الجهّال) أما عن الكلام المتداول فيها فهو ينزع نحو أنواع معيّنة (النوادر/المضاحك/...) بغية تحقيق التّفكّه والمجون، فهو مقصد هازل لا يحقّق المنفعة، لاحتماله إفساد الأخلاق.

- ***مجالس مختلطة (مزج بين الثّقافتين)***: هناك احتمال لنوع ثالث للمجالس، يجسّد إمكانية اختلاط الثّقافتين؛ فقد يلج مجلس السّفهاء شخص عالم وذلك من باب الاضطرار، «فليس يخلو من عاش بينهم من حضورها، ولابدّ للإنسان من ملابستهم فيها» وهنا يترخّص ابن وهب للوالج عليهم أن «يستعمل في مخاطبتهم ومعاملتهم بعض المقاربة لأحوالهم فإنّ ذلك أولى بسياستهم» ولا بأس «أن يتغابى العاقل لهم وأن يظهر ما يستديم أنسهم واسترسالهم» ولكن شرط ألاّ يجاوز المقدار الّذي يصلح حالهم، وهنا يبرز مقصد التّعليم والتّوجيه. وهذا النّوع من المجالس سيكون مختلطا هجينا متمايز الطّبقات والأهواء.

نستنتج من خلال هذه القراءة أنّ ابن وهب قدّم معالم واضحة لمعايير تصنيف الكلام، الّتي تسمح إدخاله ضمن المقبول أو المرذول من جهة، واختصاص أنواع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دون أخرى بسمات معيّنة، حيث خلصنا إلى دخول أنواع الحديث الّتي صنّفنا في الفصل الأول ضمن الجديّ، أمّا الهزلي فتندرج ضمنه أشكال الخبر (السّرد)، وهنا يحضرنا تساؤل بصدد رسوخ الحكم الأخير، فهل فعلا كل شكل خبري هزلي؟ أم أنّ لابن قتيبة في "عيون الأخبار" ما ينفي هذه النّظرة؟ هذا ما سيتّجه العنصر الموالي لاستجلائه من خلال مقاصد صاحب المصنّف.

3- 2-عيون الأخبار: ابن قتيبة ومقاصد الخبر

لاشكّ أنّ عمل ابن قتيبة في مصنّفه "عيون الأخبار" لا يخرج عن الثّقافة السّائدة في عصره من جانب، وعن الطّابع الدّيني والعلمي الّذي يميّز مؤلّفاته من جانب آخر[1]، ولئن كان في عمله التّصنيفي هذا يبدو مكتفيا بالنّقل والتّصنيف، إلاّ أنّه يبدو واضح المقاصد بيّن الغايات من تأليفه،واعيا بنوعيّة المتلقّين الّذين يتوجّه إليهم، كل هذا يبدو من خلال مقدّمة " عيون الأخبار"، وهنا نتبين الدّور الّذي تلعبه المقدّمات في توجيه القراءة وتحديد المعنى كما أشار إليها الباحث عبد الله العشّي بقوله:« يسعى كتّاب المقدّمات إلى تقديم توضيحات لبعض نصوصهم خوف الانصراف عن مقصديّة الكاتب، وذلك كطريقة نموذجيّة للقراءة تجنبا للفهم الضّال والتّفسير الخاطيء»[2].

يشير ابن قتيبة إلى المقصد العام الّذي يبتغي تحقيقه من خلال "عيون الأخبار"؛ الذي يخرج قليلا عن طابع تأليفه الديني والعلمي؛ فهو - عيون الأخبار - «وإن لم يكن في القرآن والسنّة وشرائع الدّين وعلم الحلال والحرام، دالّ على معالي الأمور مرشد لكريم الأخلاق زاجر عن الدّناءة ناه عن القبيح باعث على صواب التّدبير وحسن التّقدير ورفق السّياسة وعمارة الأرض...»[3]، وبهذا يتّضح المقصد الأخلاقيّ كموجّه أساس لهذا العمل، ومنه اكتساب شرعية الانتساب إلى "النّص" في الثّقافة العربيّة، ولكن لا ينبغي أن نفهم من هذا الكلام أنّ ابن قتيبة فضّل ثقافة على حساب أخرى، أوجدّ الكلام على هزله، أو آثر طبقة من المتلقيين على أخرى، وإنّما حاول الوقوف

[1]- حول مؤلفات ابن قتيبة يراجع تقديم المحقق محمد الاسكندراني ، عيون الأخبار، مج1، ص 14-26.
[2] - عبد الله العشّي، زحام الخطابات، دط، دار الأمل، تيزي وزو،2005، ص159.
[3]- م ن، مج 1، ص 38.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

موقفا وسطيّا يجعله يرضي أكبر قدر من الجماهير، بتلبية حاجات مختلف الطّبقات ، ولهذا ماثل كتابه "بالمائدة الّتي تختلف فيها مذاقات الطُّعوم لاختلاف شهوات الآكلين"[1].

ومن هنا يمكن القول أنّ ابن قتيبة في خروجه النّسبيّ هذا يحاول إرضاء كلّ الفئات؛ إذ ليس من العدل والصّواب أن يقصُرَ " عيون أخباره" على ثرائها وتنوّعها، على فئة دون أخرى، يقول: « ولم أر صوابا أن يكون كتابي هذا وقفا على طالب الدّنيا دون طالب الآخرة، ولا على خواصّ النّاس دون عوّمهم، ولا على ملوكهم دون سوقتهم، فوفيّت كلّ فريق منهم قسمه ووفّرت عليه سهمه و أودعته طرفا من محاسن كلام الزّهاد في الدّنيا وذكر فجائعها والزوال والانتقال وما يتلاقون به إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افترقوا، في المواعظ والزّهد والصّبر والتّقوى واليقين و أشباه ذلك لعلّ الله يعطف به صادفا، ويأطِر على التّوبة متجانفا، ويردع ظالما ويلين برقائقه قسوة القلوب. ولم أُخلِهِ مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة، لئلاّ يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون وعروض أخذ فيها القائلون ولأروّح بذلك عن القارئ من كدّ الجدّ و إتعاب الحقّ، فإنّ الأذن مجّاجة و للنّفس حمضة، والمزح إذا كان حقّاً أو مقاربا لأحايينه و أوقاته و أسباب أوجبته مُشاكلا ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصّغائر إن شاء الله »[2].

يتضح من هذا الكلام أنّ ابن قتيبة يحدّد ثلاث فئات للمتلقيّن، مخصّصا لكلٍّ منها الأشكال والموضوعات الّتي تلائمها، كما نبيّن أدناه:

- ***طالب الآخرة/ طالب الدّنيا***
- ***الخواص/العوام***
- ***الملوك/ السّوقة***

ينتمي الطّرف الأوّل من كل ثنائيّة (الخواص، الملوك، طالب الآخرة)، إلى ما حدّدناه آنفا بـــ" الثقافة العالمة"، الّتي يخاطبها ابن قتيبة بخطابها الخاص، الّذي يتجسّد

[1]- م ن، ص 39.
[2]- عيون الأخبار،مج1، ص 39.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في أشكال الحديث المختلفة (المخاطبات، المكاتبات) الّتي تغلب عليها موضوعات الزّهد والمواعظ والمناصحات، وذلك بغية تحصيل المعرفة (الجدّ).

أمّا الطّرف الثّاني من كلّ ثنائيّة (طالب الدّنيا، العوام، السّوقة)، فتنتمي إلى "الثقافة العاميّة" والّتي لها خطابها الخاص هي الأخرى ممثّلا في أشكال الخبر(السّرد) (كالنّوادر واللّطائف وغيرها)، وهنا سيتعلّق الأمر بالموضوعات المضحكة والمعجبة لتحقيق التّسلية والتّرفيه والإمتاع (الهزل).

يبدو من خلال رصدنا هذا اختصاص كلّ من "الحديث" و"الخبر" بمقصد دون آخر، ولكن التّأمّل في الأخبار الّتي ضمّنها ابن قتيبة "عيون الأخبار" يجعل الخبر وعاء يتّسع لمختلف هذه المقاصد الجديّ منها والهزليّ، كما يمكن- استنادا لتحليل نظرة ابن قتيبة لهذه الفئات- رصد عدّة علاقات بين المصنّف باعتباره ملقيا والمتلقيّ،هي الّتي توجه مقاصد الخبر، وهي كمّا حدّدها سعيد يقطين«إمّا ذات طبيعة معرفيّة، أو وجدانيّة أو حسيّة»[1]والّتي سنوضحها عند تحليل ووصف أنواع الخبر، الّتي تستند إلى الجدّ والهزل كما يلي:

1) خبر جديّ: (نقل معرفة، تغيير سلوك المتلقيّ) وهنا نكون أمام نوعين هما: الخبر التّعرّفي والخبر الوعظي.

2) الخبر الهزلي: (التفكه والتّرويح) وهنا نكون أمام : الخبر التّفكّهي.

1- الخبر التّعرفي: وهو الخبر الّذي يكون القصد منه تحصيل معرفة ما (دينيّة، سياسيّة، تاريخيّة...)، وهنا نأخذ عيّنة للتمثيل.

-العيّنة (أ)

أ- 1-« وحدّثني عبد الرّحمان بن عبد المنعم أو أبيه عن وهب، قال: كان إدريس النّبيّ عليه السّلام أوّل من خطّ بالقلم وأوّل من خاط الثّياب ولبسها وكانوا من قبله يلبسون الجلود» (مجلد/ ص 85)

[1]- سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص 200.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أ- 2- « وحدّثني سهل بن محمّد قال: حدّثني الأصمعي قال: حدّثني شيخ من بني العنبر قال: أسرت بنو شيبان رجلا من بني العنبر فقال لهم: أُرسل إلى أهلي ليفتدوني، قالوا: ولا تكلّم الرّسول إلاّ بين أيدينا. فجاءوه برسول فقال له: ائت قومي فقل لهم، إنّ الشّجر قد أورق وإنّ النّساء قد اشتكت. ثمّ قال له: أتعقل ما أقول لك؟ قال نعم أعقل. قال: فما هذا؟ وأشار بيده. قال هذا الليل قال: أراك تعقل. انطلق إلى أهلي فقل لهم: عرّوا جملي الأصهب واركبوا ناقتي الحمراء وسلوا حارثا عن أمري. فأتاهم الرّسول فأخبرهم، فأرسلوا إلى حارث فقصّ عليه القصّة، فلمّا خلا معهم قال لهم: أمّا قوله "إنّ الشّجر قد أورق"، فإنّه يريد أنّ القوم قد تسلّحوا. وقوله "إنّ النّساء قد اشتكت" فإنّه يريد أنّها قد اتّخذت الشّكاء للغزو، وهي أسقية، ويقال للسّقاء الصّغير شكوة. وقوله "هذا اللّيل" يريد أنّهم يأتونكم مثل الليل أو في اللّيل وقوله "عرّوا جملي الأصهب" يريد ارتحلوا عن الصّمان [اسم جبل] وقوله اركبوا ناقتي الحمراء يريد اركبوا الدّهناء. قال فلمّا قال لهم ذلك تحوّلوا من مكانهم، فأتاهم القوم فلم يجدوا منهم أحدا»

(المجلّد 1/ ص 228)

نلاحظ على الخبر البسيط أنّه ينقل معلومة حول أوّل من خطّ بالقلم وخاط الثّياب، وهو النّبي إدريس عليه السلام، وهنا يتّضح هدف التّبليغ وتوصيل المعرفة جليا وبشكل مباشر، وإن شئنا فلنقل هيمنة الوظيفة الإبلاغية، أمّا في حكاية العنبريّ، فهي تقدّم طريقة من طرق التّخلص من المآزق، باستعمال اللغة الكنائيّة والتّورية، ففي الحكاية دعوة إلى إعمال الذهن والقلب لتحصيل هذه المعرفة، وهو ما تقدّمه عديد من أخبار وحكايات الأذكياء والشّرفاء والأنبياء، سواء في باب حيل الحروب، أو أخبار الشجعان أو غيرها من الأبواب الّتي يزخر بها مصنّف "عيون الأخبار" في كتبه العشرة.

نصل من خلال هذين المثالين إلى أنّ المصنّف يريد توصيل المعرفة، بجعل المتلقي يكتشف أشياء جديدة عن طريق إعمال الفكر والتّأمل، فنحن هنا إزاء "الإخبار" و "التّعرّف". وهو المقصد الأساس الذي بنى عليه ابن قتيبة مصنّفه، حيث جعله

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

«لمغفل التّأدب تبصرة، ولأهل العلم تذكرة ولسائس النّاس ومسُوسِهم مؤدّبا»[1] ، محقّقا بذلك مقصد التّعليم والتّوجيه.

2 – ***الخبر الوعظي:*** وهو الخبر الّذي يكون القصد منه خلق انفعال لدى المتلقّي وهنا تبرز العلاقة الوجدانيّة، وهذا الانفعال يتمّ عن طريق البكاء والتّدبّر، وهذا ما تمثّله مجموعة الأخبار والحكايات الّتي تتعلّق بالمواعظ والأنبياء والزّهّاد والصّالحين والمشيب والموت والقبور والقيامة ، ويتجسّد هذا في كتاب الزهد من "عيون الأخبار"، الّذي نقتطف منه أمثلة العيّنة الموالية.

ب- العيّنة (ب)

ب- 1- « رأى إياس بن قتادة شعرة بيضاء في لحيته، فقال: أرى الموت يطلبني وأراني لا أفوته، أعوذ بك يا ربّ من فجاءات الأمور، يا بني سعد قد وهبت لكم شبابي فهِبوا لي شيبتي، ولزم بيته » (مجلّد/ ص 699)

ب-2- «احتضر فتى كان فيه زهو، فرفع رأسه فإذا أبواه يبكيان، فقال لهما: ما يبكيكما؟ قالا: الخوف عليك لإسرافك على نفسك، فقال: لا تبكيا فوالله ما يسرّني أنّ الّذي بيد الله من الرّحمة بأيديكما» (مجلد2/ ص 736)

ب-3- «تذاكر حذيفة وسلمان أمر الدّنيا، فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامديّ سرير كسرى، وكان أعرابيّ من غامد يرعى شويهات له، فإذا كان اللّيل صيّرها إلى عرصة إيوان كسرى وفي العرصة سرير رخام كان يجلس عليه كسرى، فتصعد غنيمات الغامديّ إلى ذلك السّرير» (مجلّد 2/ ص 737)

الملاحظ على هذه الأخبار حضور موضوعات الموت والمشيب وانقلاب الأحوال، وهي موضوعات تمسّ ما سيؤول إليه الإنسان، وعليه فهي تتعلّق بالإيمان بالغيبيّات (الجنة والنار)، وعلى هذا فإن المتلقي الملائم، الّذي يتفاعل مع هذه الأخبار هو "طالب الآخرة" كما حدّده ابن قتيبة، وفي هذا المستوى من التّواصل والتّفاعل بين الخبر ومتلقّيه يتحقّق مقصد الوعظ والإرشاد.

[1]- عيون الأخبار، ص 38.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- الخبر التّفكّهي: إذا كان الخبر الوعظي يخلق انفعال "البكاء" و "الانقباض" و"الخوف" عند المتلقّي، فإنّ الخبر التّفكّهي على العكس تماما، إذ يثير انفعال "الضّحك" و"الانبساط" و"الانشراح"، وهو ما يتجلى في ثنايا "عيون الأخبار" من خلال أخبار الحمقى والمعتوهين، ونوادر البخلاء ونكات النّحويين وحكايات الجبناء، وقد مرّ معنا شيء منها في العينات الّتي أوردناها إلاّ أنّنا لم نركز على هذا الجانب، ولهذا سنورد أدناه عيّنة تمثيلية لتوضيح هذا المقصد.

- العيّنة (ج)

ج- 1- « وشبيه بهذا[يقصد حكاية النهشليّ والكلب] حديث لأبي حيّة النّميري، وكان له سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق، فكان يسمّيه لعاب المنيّة. قال جار له: أشرفتُ عليه ليلة وقد انتضاه وشمّر وهو يقول: أيّها المغترّ بنا والمجترئ علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل، لعاب المنيّة الّذي سمعت به، مشهور ضربته لا تخاف نبوته. أخرج بالعفو عنك وإلاّ دخلت بالعقوبة عليك، إنّي والله إن أدع قيسا تملأ الأرض خيلا ورجلا. يا سبحان الله، ما أكثرها وما أطيبها! ثمّ فتح الباب فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبا وكفاني حربا» (مجلد1/ ص204)

ج- 2- «أتت جارية أبا ضمضم فقالت: إنّ هذا قبّلني، فقال: يا فتى أذعن لها بحقِّها، قبّليه عافاكِ الله كما قبّلك، فإنّ الله يقول: (والجروح قصاص)»

(مجلد2/ص 456)

ج- 3- «دخل على ابن رجل من الأشراف داخل وبين يديه فراريج، فغطّى الطّبق بمنديله وأدخل رأسه في جيبه وقال للداخل عليه: كن في الحجرة الأخرى حتّى أفرغ من بخوري» (مجلد3/ ص246)

ج- 4- «تزوّج أعرابيّ امرأة، فلمّا دخل بها عابثها فضَرطت فخرجت غضبى إلى أهلها، وقالت: لا أرجع حتّى يفعل مثلما فعلتُ فقال لها عودي لأفعل. فعادت ففعل؛ فبينما هو يداعبها إذ حَبَقَت أخرى، فقال الأعرابي:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

طَالبتِني دينًا فلم أقضِكِ والله حتَّى زِدتِ في قرضِكَ

فلا تَلوميني على مطْلِه إن كانَ ذَا دَأبكِ لم أقْضكِ» (مجلد386/4)

نلاحظ من خلال هذه الأخبار والحكايات الانتقال من النّقيض إلى النّقيض في العلاقة الوجدانيّة بين البكاء(الجد) والضحك(الهزل)، وأنّ هذا الهزل الحاضر في ***"عيون الأخبار"*** يخترق المكرّس من الخطابات "الجديّة" وهذا ما يبدو في أنواع الشّخصيات المختارة لهذا الضّرب من الأخبار، فهي شخصيّات هامشيّة ومقصاة ذوات خلائق وطبائع غريبة، مضحكة، مثيرة للسّخرية، وهكذا ستجد فيها فئة طلاّب اللّهو والمرح سدّا لحاجاتها التّرفيهيّة، هذه الفئة من المتلقّين هي الّتي يرغب ابن قتيبة استقطابها وإقبالها عليه، ولهذا نراه يزجر المتشدّد المتزمّت المعترض على هذه الأشكال منذ البداية، يقول في مقدّمته: «فإذا مرّ بك أيّها المتزمّت حديث تستخفّه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به واعلم أنّك إن كنت مستغنيا عنه بتنسّكك فإنّ غيرك ممّن يترخّص فيما تشدّدت فيه محتاج إليه، وإنّ الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيّأ على ظاهر محبّتك، ولو وقع فيه توقّي المتزمّتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ولعرض عنه من أحببنا أن يُقبِل إليه معك »[1].

هذه الخشية من انتقاص بهاء الكتاب وجماله هي الّتي رخّص بها ابن قتيبة لنفسه إيراد هذه الأخبار الهازلة، والّتي قد تحوي فحش الكلام ورفث القول وذكر العورات، وهنا تنشأ علاقة حسيّة من شأنها أن تثير اللذة (الجنسيّة بشكل خاص) لدى المتلقي، كما بدا في حكم القاضي أبي ضمضم(القبلة) أو في ضراط المرأة عند الجماع، وهو ما يتنافى مع المقصد الأخلاقي الّذي حدّده ابن قتيبة، ولهذا نلفيه يسدّ هذا الباب ويضع حدودا للهزليّ لئلاّ يخرج إلى باب الفسوق والتّماجن على نحو ما يستعمله الجهّال كما أشار ابن وهب في ضبطه آداب الكلام واستعمالاته.

يفرّق ابن قتيبة بين هذا وذاك قائلا:«وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنّك الخشوع أو التّخاشع على أن تصعّر خدّك وتعرض بوجهك فإنّ أسماء الأعضاء لا تؤثم وإنّما المأثَم في شتم الأعراض وقول

[1]- عيون الأخبار، مج 1، ص 39.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الزّور والكذب وأكل لحوم النّاس بالغيب»[1]، مستشهدا في هذا الباب بأحاديث للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وصحابته يرد فيها ذكر أسماء وصفات العورات الجسديّة، ثم يفرق بين هذا الاستعمال واستعمال الفسّاق وأصحاب الخلاعة والمجون، وهنا يحدّد حالات جواز استعمال هذا الضّرب من الهزل: «... ولم أترخّص لك في إرسال اللّسان بالرّفث على أن تجعله هِجِّيراك على كلّ حال وديدَنَك في كلّ مقال، بل التّرخّص منّي عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها تنقصها الكناية ويذهب بحلاوتها التّعريض، وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السّلف الصّالح في إرسال النّفس على السّجيّة والرّغبة بها عن لبسة الرّياء والتّصنّع»[2].

هذه إذن شروط وحدود استعمال "الهزل" في ذكر الأخبار، الّتي يتحدّد وفقا لها هزل مشروط بمقاربة "الحق" ومجانبة "الباطل"، وهنا يحضرنا تعليق للباحث ***محسن جاسم الموسوي*** على هذه النّظرة، يقول:« فبهذا الاستناد إلى المحتمل والممكن يجري تحرير الخطاب من (المقدّس) ولكنّه يقرنه من جانب آخر بالأخلاق، فيكون معياره متداخلا على أساس أسبقيّة المحتمل على غيره والفعليّ على المتخيّل، منحازا في النّتيجة للاتباعيّة بقدر ولواقعيّة الفئات بقدر أكبر، وهكذا نراه يأخذ بالواقع مفهوما يتّسع للجسد وأعضائه وما يخصّه من فعل وشهوات نازعا عن الحديث فيه تهمة المجون والخلاعة»[3].

نصل في نهاية هذا المبحث إلى أنّه من خلال الإلمام بالثّقافة السّائدة، توصّلنا إلى معرفة ما أحدثته ثنائيّة (جد/هزل) من تقسيم إلى ثقافتين عالمة وعاميّة، وتكريس الأولى والاعتراف بها على حساب الثّانية، ودورها في توجيه مقاصد الكلام العربي بشكل عام والخبر على وجه أخصّ، وكذا من خلال التّأمل في الأخبار الواردة في المصنّف على ضوء مقاصد ابن قتيبة وأهدافه وغاياته المُعلَنِ عنها في مقدّمته، أمكننا التوصّل إلى تصنيف ثلاثي للخبر باعتبار العلاقات المختلفة الّتي ينشئها مع متلقّيه، مستهدفا تحقيق ثلاث مقاصد، قد تتضافر في الخبر الواحد، كما قد ينفرد الخبر

[1]- عيون الأخبار، مج، ص 39.
[2]- م ن، ص 40.
[3]- محسن جاسم الموسوي، سرديات العصر الإسلامي الوسيط، ص 16.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بأحدها وهي: ***المعرفة والتّوجيه، الوعظ والإرشاد، الفكاهة والتّرويح***، ومنه كان: ***الخبر التّعرّفي، والخبر الوعظي، والخبر التّفكّهي.***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- تركيب:

نخلص بعد معاينة الجوانب المتعدّدة لأشكال الخبر في "عيون الأخبار" إلى ما يلي:

- يتقدّم الخبر كشكل بوصفه سردي "الصيغة" ولذا كان التّعامل معه باعتباره متتالية سرديّة، بالمفهوم الذي تؤديّه العبارة في السّرديات الحديثة، ومنه اعتمادنا على مقترحاتها النظريّة في مقاربة بنيته بشكل خاص، بحكم أنّ تراثنا لم يول أهميّة للجانب الشّكلي للخبر، لانشغاله بجوانب أخرى.

- الخبر وإن كان وحدة سرديّة، فإنّه يمتلك خصوصيّة جعلته ينزلق من إسار الإجراءات السّرديّة الحديثة.

- إنّ معاينة البنيات (جانب شكلي) التي تميّز الخبر يحدّد نوعين أصليين (الخبر البسيط والحكاية)، ولكنها نظرة عموديّة تتّسم بنوع من العموميّة، إذ تتماثل وفقها كل الأخبار، باختلاف موضوعاتها وأنماطها ومقاصدها، وهو ما جعلنا نحوّل نظرتنا إلى الجانب الأفقي (الأنماط والمقاصد)، بغية الوصول إلى تصنيف متعدّد الجوانب.

- بروز ثنائيات في الدراسات التّراثيّة والحديثة، مثّلت معايير يتم النّظر خلالها في الكلام العربي، والخبر بشكل خاص، وكلّ من هذه الثّنائيّات تستحضر طرفا لإبراز آخر وتغليبه، فالبسيط يكتنفه النّقص وعدم الاكتمال، في مقابل المركّب الّذي يحضر باعتباره صورة نهائيّة، كما مثّل الواقعي صورة الصّدق والاطمئنان والمعقوليّة على حساب اللاّواقعيّ الذي قد ينتمي للكذب والتّخريف، وكذا ما رأينا على مستوى المقاصد من مفاضلة بين الجدّ والهزل، واعتراف لنصوص على حساب أخرى، وقد حاولنا من خلال رصد نماذج الخبر الّتي يتضمّنها "عيون الأخبار" إعادة التّوازن والتّخفيف –حتى لا نقول إلغاء- من حدّة الإقصاء الممارسة على "الثّانوي" و"الهامشي"، فقد رأينا كيف يكتسي البسيط أهميّة باعتباره يمثّل نواة تمتلك إمكانات هائلة للتّطور إلى أنواع أخرى، لما تتمتّع به بنيته من مرونة وقبول للانفتاح

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتّشعّب، وكذلك الخبر اللاواقعي الّذي وجدناه يخرج عند ابن قتيبة عن الكذب والافتراء لانضوائه تحت مفهوم الحقيقة المرتبط بالعقيدة والإيمان بالغيبيّات في الثّقافة الإسلاميّة، أمّا عن حضور الهزليّ في "عيون الأخبار" فلا يخرج إلى الخلاعة والمجون والعبث لأنه هزل مهذّب، هادف، يحقّق التّوازن النّفسي والرّوحي والفكري للإنسان، وهكذا يتساوى "الهزل" أمام "الجد" في مرتبتهما، ماداما يحقّقان الهدف الأخلاقي الّذي سطّره ابن قتيبة.

- يبدو أنّ التفكير الثّنائي المنبني على الشّيء ونقيضه، ميزة كلّ تفكير إنسانيّ باختلاف العصور والحضارات، ولكنّه يبدو أكثر حدّة في تراثنا، بدليل تحكّمه في الماضي–ولازال إلى اليوم- في النّظر إلى الظّواهر والحكم عليها، ممّا يؤدي إلى ممارسة إقصاءات تضيّق أفق النّظر، وهو ما لاحظناه على التّفكير النّقدي واللاّأدبي في التّراث وتكريسه إلى غاية اليوم ممّا حرمنا كثيرا من المتعة والجماليّة في أدبنا.

- تمثّل عمليّة الفصل بين مستويات التّصنيف الّتي قمنا بها بين بنيات الخبر وأنماطه ومقاصده، مجرّد إجراء منهجيّ لتسهيل قراءة الخبر في جوانبه المتعدّدة، ولإبراز التّقاطعات التي تحدثها المقاطع الطّوليّة والعرضيّة في الظّاهرة، لنقوم بالتّركيب في هذا المستوى، فلا ينبغي لقارئ البحث أن يعتقد أنّ انتماء خبر ما إلى البسيط (كخبر أبي علقمة النّحويّ مثلا) ينفي عنه الانتماء في -الوقت نفسه- إلى الغريب و التّفكّهي وهكذا، وهذا ما يوضّحه المخطّط التالي:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

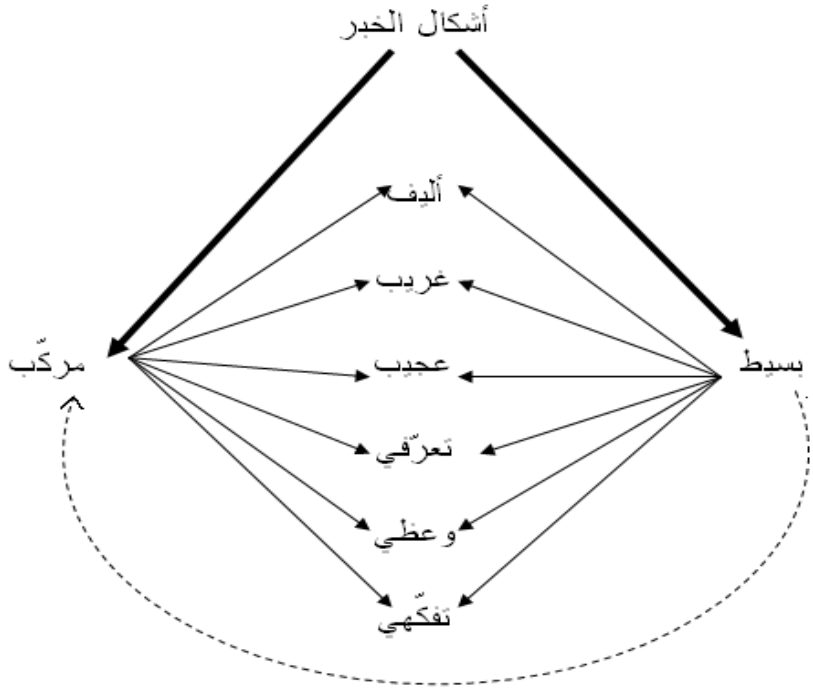

تشير الأسهم الغليظة إلى النّوع الأصل (الثابت)، في حين تشير الأسهم الرّقيعة إلى الأنواع المتحولة (المتغيّرة)، بينما يشير السّهم المتقطّع إلى إمكانية التّحول من نوع لآخر.

وهكذا من خلال هذه العلاقات الّتي ينسجها الخبر عبر مستوياته المختلفة تكتمل نظرتنا التصنيفيّة لأشكال الخبر في "عيون الأخبار"، والّتي لا تخلو حتما من النّسبيّة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة:

إذا كان الكلام مستمرّا والبحث متواصلا، فإنّ هذا البحث لابدّ أن يتّخذ خاتمة هي "زبدة المخض" على حدّ عبارة ابن قتيبة، حيث نحاول في هذا المستوى من البحث إجمال ما فصّلناه من خلال عمليات الوصف والتّحليل والتصنيف الّتي قمنا بها على مدار تأطيره وفصليه، ولتفادي تكرار النتائج الجزئية المضمّنة في آخر كل فصل، سنجمل الحديث عمّا أنجز خلال البحث في ثلاث نقاط: ما يتعلّق بتصورات التراثيين للأدب والنثر وفهمهم لمسألة التصنيف والخلفية الّتي تحكّمت في ممارستهم لها وعقد الصّلة بينها وبين منجزات الآخر، والنقطة الثّانية تتعلّق بعملنا التّحليلي التّصنيفي في "عيون الأخبار" وما توصّلنا إليه مع النظر في علاقته بتلك التّصوّرات، والنقطة الثّالثة تتصل بابن قتيبة وعمله في مصنّفه بالنّظر في علاقته بالنّقطتين السّابقتين.

النقطة الأولى:

- بروز بعض المفاهيم عند أسلافنا موسّعة ومتداخلة فيما بينها وهي: الأدب، الكلام، البلاغة والكتابة؛

- تجلّي الوعي بالتّصنيف والتّقسيم من خلال منظومة مفهوميّة في أعمالهم كالأجناس والأقسام والأصناف والأنماط...مع ما يظهر من مراعاة لمستوياتها كالتراتب والتقابل والتوازي...؛

- الاستناد على خلفيّة بلاغيّة بالدّرجة الأولى لتصنيف الكلام العربي ووصفه والحكم عليه؛

- الانفتاح على ثقافة الآخر والتفاعل معها ممارسة وتنظيرا؛

- هيمنة التفكير الثّنائي الضدّي على التّصورات الثقافيّة المعرفيّة، ممّا ضيّق النّظر وأدى إلى هيمنة أشكال أدبية وبروزها على حساب أخرى؛

- بداية تحول النّظر إلى النّثر، باعتباره جنسا مقابلا للشعر، ومحاولة إبرازه، وذلك ما تجلّى في مظهرين: الأوّل من خلال المنجزات التنظيرية البلاغيّة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النّقديّة، والثّاني وهو الأهم من خلال التّجليات الحاضرة في المدوّنات الكثيرة الّتي اتجهت إلى جمع وتدوين وتصنيف هذا الموروث النّثري الهائل؛

- وجدنا في كثير من التّصورات التي قدمها أسلافنا صِنوًا للمقترحات الحديثة (الغربية)، بل إنّها تتجاوزها أحيانا، لكنّ التّقصير منّا في التّنقيب والإقبال عليها لفهمها واستيعابها بشكل أحسن.

النقطة الثّانية:

- بناء على التّصورات التراثية من جهة والتّصورات الحديثة من جهة أخرى حاولنا تشكيل خلفيّة ملائمة تساعدنا على قراءة المدوّنة، فكان أن اعتمدنا على مقترح سعيد يقطين في التّصنيف نظرا لشموليته ومرونته كمدخل، مع تعزيزه كل ما يخدم عملنا، وهذا التعدد في وجهات النّظر صعّب من إيجاد نسق عام يحيط بكل الأشكال، ما يبرر اختلاف مرتكزات التصنيف المقدّمة في الفصلين، ومنه نصل إلى استحالة وجود نموذج تصنيفي مثالي؛

- القصور الّذي قد يبدو في التّحكم المطلق في التّصنيف لقلّة الخبرة أو ضعف التجربة يقابله التنوّع والثّراء الّذي يميّز المتن المشتغل به، الّذي وقفنا عاجزين إزاءه في كثير من الأحيان؛

- من خلال العمل المقدّم في الفصلين يمكن تقديم خطاطة عامّة للأشكال الّتي يتوفّر عليها "عيون الأخبار" وتفريعاتها، كما يلي:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

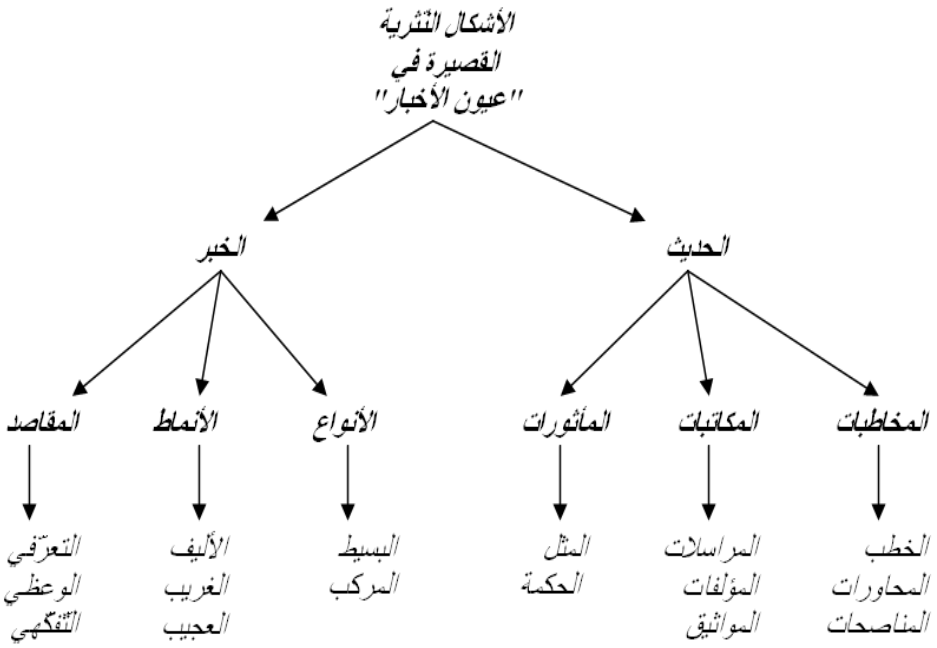

النّقطة الثّالثة:

- يحمل مصنّف عيون الأخبار في طيّاته مفاتيح تساعد على قراءته قراءة تصنيفيّة تميزيّة، من زوايا متعدّدة، وما التّصنيف الموضوعاتي الّذي قدّمه ابن قتيبة إلاّ رأس الجبل الجليدي الضخم الّذي يغور في الماء؛

- يبدو ابن قتيبة ملتزما الحياد لأوّل وهلة، ولكن لا تلبث نظرته أن تطفو على السّطح من خلال موازياته النّصيّة المتعدّدة، لعلّ أبرزها مقدّمة المؤلّف؛

- هيمنة الأشكال القصيرة في المصنّف يعزّز الفرضية المنطلق منها؛

- يعكس مؤلف "عيون الأخبار" مرآة أخرى من مرايا فكر ابن قتيبة وتصوّراته المتعدّدة (الفقهية، العلمية، اللّغوية، النقدية،...) وهي الّتي تعكس ابن قتيبة المصنّف، ومن يدري ربما كانت له وجهات أخرى لا يمكن كشفها لأن كتبه لم تصلنا كلها، والّتي منها كتاب "الحكاية والمحكي" على ما ذكر ابن النّديم، والّذي نتخيّل أنه كان سيسدّ ثغرة في نظرتنا إلى تصوّر التراثيين للسرد والنثر بصفة عامة، ليبدو التراث في صورته الأكمل، وتتجسد مقولة "النثر ديوان العرب" جنبا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى جنب مع مقولة "الشعر ديوان العرب"، وهو ما يفتح آفاق البحث بالتنقيب والتقليب المستمرين للتّراث العربي استقراءً وتطبيقاً وتنظيراً.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المصادر والمراجع:

1- **بالعربية:**

- **ابن قتيبة الدينوري**: عيون الأخبار،تحقيق: محمد الإسكندراني،ط5،مجلد 1،دار الكتاب العربي، بيروت، 2002.

أدب الكاتب، تحقيق: محمد الدالي، دط، مؤسسة الرسالة، بيروت،دت.

- **ابن كثير أبو الفداء الحافظ**: قصص الأنبياء، تحقيق: صدقي جميل العطّار،ط1، دار الفكر، لبنان،2003.
- **ابن المقفّع** : آثار ابن المقفّع، تقديم عمر أبو النّصر، منشورات دار مكتبة الحياة،ط1، بيروت 1996.

- **ابن منظور**: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دط، دار المعارف، مصر،دت.
- **ابن وهب الكاتب**: البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني محمد شرف،د ط، مكتبة الرسالة ، مصر،د ت.
- **أبو حنيفة الدّينوري:** الأخبار الطّوال،تح: عمر فاروق الطّباع، دط، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، 1955.
- **أبو هلال العسكري**: جمهرة الأمثال، ضبط وتنسيق وشرح: أحمد عبد السلام، ج1،ط1، دار الكتب العلمية،1988.
- **أرسطو طاليس:** الخطابة: الترجمة العربية القديمة، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، د ط، وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم –لبنان، د ت.
- **بسمة عروس**: التّفاعل في الأجناس الأدبية، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، تونس،2008.
- **تزفيتان تودوروف**: نظرية المنهج الشكلي:نصوص الشّكلانيين الرّوس، تر: إبراهيم الخطيب،د ط،مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،د ت.

مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة: الصديق بوعلام،ط 1، مصر،1994.

مفهوم الأدب ودراسات أخرى، تر : عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2002.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **التهانوي محمد علي**: كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق علي دحروج،ط1،ج1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،1996.
- **الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر**: البيان والتبيين، تحقيق: علي أبو ملحم،مجلد1 ،ط2، منشورات دار مكتبة الهلال، لبنان، 1992.

رسائل الجاحظ،تحقيق علي أبو ملحم،دط، دار مكتبة الهلال، بيروت، 2000.

- **الجرجاني علي بن محمد** : التعريفات، دط، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1995.
- **جيرار جينيت**: خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، تر: محمد معتصم وآخرون،ط3، منشورات الاختلاف، الجزائر،2003.

مدخل إلى جامع النّص، تر:عبد الرحمان أيوب، ط2، دار توبقال،المغرب،1986.

- ***الحسن اليوسي***: زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر،جزء 1، ط1، دار الثقافة، المغرب، 1981.
- **رشيد يحياوي** : الشعرية العربية (الأنواع والأغراض)، ط1، إفريقيا الشرق، المغرب،1991.

مقدّمات في نظريّة الأنواع الأدبيّة ، ط2، إفريقيا الشّرق، المغرب،1991.

- **رولان بارت**: درس السيميولوجيا، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، ط3، دار توبقال، المغرب، 1993. ص 34.

التحليل البنيوي للقصص، ترجمة:منذر عياشي،ط2، مركز الإنماء الحضاري، سوريا،2002 "

هسهسة اللغة، ترجمة : منذر عياشي، دط، مركز الانماء الحضاري، سورية،1984.

- **سعيد جبّار**: الخبر في السرد العربي(الثوابت والمتغيرات)،ط1، شركة المدارس للنشر والتوزيع، المغرب،2004.
- **سعيد يقطين**: تحليل الخطاب الرّوائي(الزّمن السّرد التّبئير)،ط3، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، 1997.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذخيرة العجائب العربية (سيف بن ذي يزن)،ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب،1994

الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي)، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1997.

قال الرّاوي (البنيات الحكائية في السيرة الشّعبية)،ط1، المركز الثّقافي العربي، المغرب،1997.

السرد العربي (مفاهيم وتجليات)،د ط، رؤية، القاهرة،2006.

- **عبد الحق بلعابد**: عتبات(جيرار جينيت من النص إلى المناص)،ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر،2008 .

- **عبد الفتاح كيليطو**: الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، ط2، دار الطليعة، بيروت، 1983.

المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، المغرب، 1993.

- **عبد العزيز شبيل**: نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري: جدلية الحضور والغياب، ط1، دار الحامي، تونس،2001.
- **عبد الله إبراهيم**: السردية العربية : بحث في الموروث الحكائي العربي،ط2، المؤسسة العربيةللدراسات والنشر، بيروت،2002.

التلقي والسياقات الثقافية، ط2، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005.

- **عبد الله العشّي**: زحام الخطابات، دط، دار الأمل، تيزي وزو،2005.
- **فلاديمير بروب**: مورفولوجيا القصّة، ترجمة: عبد الكريم حسن وسميرة بن عمو، ط1، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 1996.
- **القلقشندي أبو العبّاس أحمد**: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مجلّد1، دط، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1922.
- **طه حسين**: حديث الأربعاء، ج1، ط 11، دار المعارف، مصر، 1975.
- **الكلاعي أبو القاسم**: إحكام صنعة الكلام،تحقيق: محمد رضوان الداية،دط، دار الثقافة بيروت،1966.
- **لؤي حمزة عباس**: سرد الأمثال،دط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سورية، 2003.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **لؤي علي خليل**: عجائبية النثر الحكائي (أدب المعراج والمناقب)،دط، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سورية،2007.
- **محسن جاسم الموسوي**: سرديات العصر الإسلامي الوسيط، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب،1997.
- **محمد توفيق أبو علي**: الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1988.
- **محمد العمري**: في بلاغة الخطاب الإقناعي (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربيّة الخطابة في القرن الأوّل نموذجا)، ط1، دار الثّقافة المغرب، 1986.

نظرية الأدب في القرن العشرين،ط2 ، إفريقيا الشرق، المغرب، 2004.

- **محمد القاضي**: الخبر في السرد العربي (بحث في السردية العربية)،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1998.
- **محمد مشبال**: بلاغة النادرة، ط2، دار جسور للطباعة والنّشر والتّوزيع، المغرب، 2001.
- **الميداني أبو الفضل**: مجمع الأمثال، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1988.

2- ***بالفرنسية:***

- **Alain Montandon**: Les formes brèves, édition Hachette, Paris, 1992.
- **André Jolles** : Les formes simples, edition du Seuil, Paris, 1972 .
- **Bernard Roukhomovsky**:Lire les formes brèves, édition Nathan, Paris,2001 .
- **Fontanille Jacque**: Sémiotique et littérature : Essais de méthode, ed Presses universitaires de France, Paris, 1999.
- **Joëlle Gardes** et autres: dictionnaire de critique littéraire, 2em édition, Armand colon, Paris, 1996.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com